

سورة الشعراء

هي مكية في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدني؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخرها. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي رواية: ست وعشرون. وعن ابن عباس [قال]: قال النبي ﷺ: «أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة» (١). وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّم﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿لعلك تبخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعتقهم لها خاضعين ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ فقد كذبوا فسيأتيهم أنبتوا ما كانوا به يستهزئون ﴿أولم يروا إلى الأرض كذا أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾

قوله تعالى: ﴿طسّم﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف بإمالة الطاء (٣) مشبعا في هذه السورة وفي أختيها. وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الباقون بالفتح مشبعا. قال الثعلبي: وهي كلها لغات فصيحة. وقد مضى في «طه» قول النحاس في هذا. قال النحاس: وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي: ﴿طسّم﴾ بإدغام النون في الميم، والقراء يقول بإخفاء النون. وقرأ الأعمش وحمزة: «طسين ميم» بإظهار النون (٤). قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يبينان عند حروف

(١) ضعيف: ضعفه السيوطي (١١٦٧) في الجامع الصغير، وكذا ضعفه الألباني (٩٥٠) في ضعيف الجامع.

(٢) ضعيف: ضعفه السيوطي (١٦٨٨) في الصغير، وكذا ضعفه الألباني (١٥٥٦) في ضعيف الجامع من رواية محمد بن نصر، عن أنس - رضي الله عنه.

(٣) انظر: تقريب النشر (ص ١٥٢).

(٤) قراءة متواترة: الإقناع (٢/ ٧١٦).

الخلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقبلان ميماً عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الخلق فتبين النون عنده، ولكن في ذلك وجبته: وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون. قال الثعلبي: الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياساً على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم. قال النحاس: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يجري وفيما لا يجري» أنه يجوز أن يقال: «طسِين ميمٌ» بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدي كرب. وقال أبو حاتم: قرأ خالد. «طسِين ميمٌ». ابن عباس: ﴿طسَم﴾ قَسَم وهو اسم من أسماء الله تعالى^(١)، والمقسم عليه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن أقسم الله به^(٢). مجاهد: هو اسم السورة ويحسن افتتاح السورة^(٣). الربيع: حساب مدة قوم^(٤). وقيل: قارعة نحل بقوم. ﴿طسَم﴾ و﴿طسْت﴾^(٥) واحد. قال:

وَقَأَكُمَا كَالرَّبِيعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ
بَانَ تُسْعَدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

وقال القرظي: أقسم الله بطوله وسنائه وملكه^(٦). وقال عبد الله بن محمد بن عاقيل: الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة. وقال جعفر بن محمد بن علي: الطاء شجرة طوبى، والسين سدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ. وقيل: الطاء من الطاهر والسين من القدوس وقيل من السميع وقيل من السلام والميم من المجيد. وقيل: من الرحيم. وقيل: من الملك^(٧). وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة». والطَّوَّاسِيمُ والطَّوَّاسِينُ سور في القرآن جمعت على غير قياس^(٦). وأنشد أبو عبيدة:

وبالطَّوَّاسِيمِ التي قد ثُلُثت
وبالحواميم التي قد سُبُعت

قال الجوهري: والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال: ذوات طسَم وذوات حم. قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ رفع على إضمار مبتدأ أي هذه ﴿تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ التي كنتم وعدتم بها؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن. وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه. ﴿وَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها. وقد مضى في «الكهف»^(٩) بيانه. ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لتركهم الإيمان. قال الفراء: «أن» في موضع نصب؛ لأنها جزء. قال النحاس: وإنما يقال: بأن مكسورة لأنها جزء؛ كذا المتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أن» في موضع نصب مفعول من أجله؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية. وقال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية: صوت يسمع من السماء في النصف من شهر

(١ - ٥) هذا الكلام سبق تفنيده ولا يصح إلا أنه تمجد للعرب أهل الفصاحة والبلاغة، والسند إلى ابن عباس منقطع؛ لأنه من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وانظر تفسير الطبري (١٩ / ٥٩).

(٦ - ٨) ضعاف، وانظر السابق، وضعفها ابن الجوزي (٤ / ٤٨٧) في زاد المسير.

(٩) عند الآية (٦).

رمضان؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضح له الأرض^(١). وهذا فيه بعد؛ لأن المراد قريش لا غيرهم. ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أي فطلت أعناقهم ﴿لَهَا خَاصِعِينَ﴾ قال مجاهد: أعناقهم كبرائهم؛ وقال النحاس: ومعروف في اللغة؛ يقال: جاءني عنق من الناس أي رؤساء منهم. أبو زيد والأخفش: ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ جماعاتهم؛ يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة. وقيل: إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. قتادة: المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية^(٢). ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية^(٣)؛ ذكره الثعلبي والغزنوي. وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر واختاره المبرد. والمعنى: إنهم إذا ذلت رقابهم ذلوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها. ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثاني؛ قال الراجز:

طُولُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي طَوَّيْنِ طَوْلِي وَطَوَّيْنِ عَرْضِي

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير:

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذَنَ مِنِّي كَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ مِنَ الْهَلَالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرَّ وطول من الكلام لم يفسد معناه، فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قوله: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فطلوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة. والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء. ومثل هذا الحذف لا يقع في شيء من الكلام؛ قاله النحاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدم في «الأنبياء». ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعيد لهم؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزءوا به. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذي يستحق أن يُعبد؛ إذ هو القادر على كل شيء. والزوج هو اللون؛ قاله الفراء. و﴿كريم﴾ حسن شريف، وأصل الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم شريف فاضل صفوح. ونبت الأرض وأنبت بمعنى. وقد تقدم في سورة «البقرة»^(٤) والله سبحانه هو المخرج والمنتب له. وروي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لثيم^(٥). ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿وَمَا كَانَ

(١) باطل : ولا يصح ، وانظر تعليق المصنف عليه .

(٢) صحيح إلى قتادة : الطبري (١٩ / ٦٠) في تفسيره .

(٣) باطل : والثعلبي ينفرد عادة بالناكير ، ولم أهد إليه مسنداً .

(٤) عند الآية (٢٢) .

(٥) ضعيف : فيه جهالة المحدث عن الشعبي ، كما في تفسير ابن أبي حاتم (١٠ / ٣٩٦) ، وقد عزاه السيوطي (٥ /

١٥٣) في الدر المنثور إلى عبد بن حميد ، والفريابي وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم. و﴿كَانَ﴾ هنا صلة في قول سيبويه؛ تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. و﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٤﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٥﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٦﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِمَا تَيْنَانَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب؛ المعنى: واتل عليهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ ويدل على هذا أن بعده. ﴿وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ذكره النحاس. وقيل: المعنى؛ واذكر إذ نادى كما صرح به في قوله: ﴿وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] وقوله: ﴿وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [ص: ٤٥] وقوله: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]. وقيل: المعنى؛ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كان كذا وكذا. والنداء الدعاء بيا فلان، أي قال ربك يا موسى ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم أخبر من هم فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ف﴿قَوْمٌ﴾ بدل؛ ومعنى ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودل قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى؛ قل لهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالياء لجاز. ومثله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] بالياء والياء. وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بتاءين أي قل لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. قال رب ﴿أَيُّ قَوْمٍ﴾ أي قال موسى ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي في الرسالة والنبوة. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ لتكذيبهم إياي. وقراءة العامة ﴿وَيَضِيقُ﴾ ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ بالرفع على الاستثناف. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوه ﴿وَيَضِيقُ وَلَا يَنْطَلِقُ﴾^(١) بالنصب فهما رداً على قوله: ﴿أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ قال الكسائي: القراءة بالرفع؛ يعني في ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ يعني نسقاً على ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾. قال الفراء: ويقرأ بالنصب. حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر وكلاهما له وجه. قال النحاس: الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] فهذا يدل على أن هذه كذا. ومعنى ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ في المحاجة على ما أحب؛ وكان في لسانه عقدة على ما تقدم في «طه». ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعله رسولا معي ليؤازرنِي ويظاهرنِي ويعاوننِي. ولم يذكر هنا ليعينني؛ لأن المعنى كان معلوماً، وقد صرح به في سورة «طه»: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا﴾ وفي القصص: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] وكان موسى أذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه. ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

في «القصص» (١) بيانه، وقد مضى في «طه» ذكره. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودلّ على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي كلا لن يقتلوك. فهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرّون على قتلك، ولا يقوون عليه.

﴿فَأَذَهَبَا﴾ أي أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى. ﴿مُتَمِّعُونَ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجابون. وإنما أراد بذلك تقوية قلوبهما وأنه يعينهما ويحفظهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف البارئ سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير. وقال في «طه»: ﴿أَسْمِعْ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] وقال: ﴿مَعَكُمْ﴾ فأجراهما مجرى الجمع؛ لأن الاثنين جماعة. ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلنا إليه. ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٣١ ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٣٢ ﴿قَالَ أَمْ أَرْسِلُكُمْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ١٣٣ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ١٣٤ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ١٣٥ ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٣٦ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٣٧

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا: إنا ذوو رسالة رب العالمين. قال الهذلي:

لِأَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَيْرِ
الْكِنْيَ إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ
الْكِنْيَ إِلَيْهَا مَعْنَاهُ أَرْسَلَنِي. وقال آخر:

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَأَشُونَ مَا بُحْتُ عَنْهُمْ
بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

آخر:

أَلَا أَبْلُغُ بَنِي عَمْرٍو رَسُولًا
بِأَنِّي عَنْ فُتَاخَتِكُمْ غَنِيٌّ

وقال العباس بن مرداس:

أَلَا مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي خُفَاةً
رَسُولًا بَيْتُ أَهْلِكَ مُتَّهَاهَا

يعني رسالة فلذلك أنشأها. قال أبو عبيد: ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذا رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ عِدْوَتِي﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلُ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون استعبدهم أربعمئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً (٢). فانطلقا إلى فرعون

(١) عند الآيات (١٥ - ١٩).

(٢) هذا العدد مشكوك في صحته، لكونه منقولاً عن بني إسرائيل أنفسهم، ومعلوم أن التوراة تعرضت =

فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البواب على فرعون فقال: هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون: ايذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلوا عليه وأديا الرسالة. وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعاً من أسد وغمور وفهود يتفرج عليهما، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرع السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصص إليهما بأذنانها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛ فـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيراً ولم نقلك من جملة من قتلنا ﴿وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عَمْرُكَ سِنِينَ﴾ فمعتى كان هذا الذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْيَاقِينُ﴾ والفعل بفتح الفاء المرة من الفعل ^(١). وقرأ الشعبي: «فعلتك» بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك. وقال الشاعر:

كَانَ مَشِيئَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ الشَّحَابَةِ لَا رَيْثَ وَلَا عَجَلٌ

ويقال: كان ذلك أيام الردة. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال الضحّاك: أي في قتل القبطي إذ هو نفس لا يحل قتله ^(٢). وقيل: أي بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك؛ قاله ابن زيد ^(٣). الحسن: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في أي إلهك ^(٤). السدي: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه ^(٥). وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر ^(٦). فـ ﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا﴾ أي فعلت تلك الفعل بريد قتل القبطي ﴿وَأَنَا﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين؛ فنفي عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل. وكذا قال مجاهد؛ ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين ^(٧). ابن زيد: من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل ^(٨). وفي

= للتحريف، وللتصحيح، وارتد بنو إسرائيل سبع مرات فتروحوا بين الإيمان والكفر، مع تعرض بني إسرائيل لغارات الفلسطينيين، وسبى بختصر، وحدث أحداث جسام عظام كقتل الأنبياء، وغيرها، ثم اختلاف اليهود إلى فرق عدة، مما يعني الطعن في هذا القول، وقد تعقب هذا ابن حزم - والله يغفر له - في هذه للتوراة كما في الملل (١/ ١٣٠، ١٣١) فقد قام بتتبع دقيق لتعداد الرجال القادرين على القتال، ثم حصر المسايحة التي سميت على بني إسرائيل فتبين عدم معقولة الخبر، والله أعلم.

(١) ضعيف: ووجدته بنحوه مطولاً في الزهد للإمام أحمد، وفي سننه إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه

أبو هشام الصنعاني وفيه مقال وانظر الزهد برقم (٣٤٢) للإمام أحمد بترقيمي - ط - دار الحديث.

(٢) ذكره النحاس (٥/ ٧٠) في معاني القرآن غير مسند، وانظر زاد المسير (٤/ ٤٨٨).

(٣) صحيح إليه أو حسن: الطبري (١٩/ ٦٦) في تفسيره واختاره.

(٤) ذكره ابن الجوزي (٤/ ٤٨٨) في زاد المسير غير مسند.

(٥) حسن إليه: الطبري (١٩/ ٦٦)، وانظر السابق (٤/ ٤٨٨).

(٦) هذه مدة الله أعلم بصحتها إذ السند إلى موسى عليه السلام منقطع ولم يصرح القرآن بها، وإنما بالجمع بين

القرآن وتفسير ابن عباس مكث موسى عشر سنوات كما في القصص.

(٧) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ٦٧) في تفسيره.

(٨) صحيح إليه: السابق (١٩/ ٦٧).

مصحف عبد الله «مِنَ الْجَاهِلِينَ» (١) ويقال لمن جهل شيئاً ضل عنه. وقيل: «وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» من الناسين (٢)؛ قاله أبو عبيدة. وقيل: «وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» عن النبوة ولم يأتي عن الله فيه شيء، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ. وبين بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ أو في وقت لم يكن فيه شرع لا ينافي النبوة.

قوله تعالى: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُكُمْ» أي خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة «القصص»: «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» [القصص: ٢١] وذلك حين القتل. «فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا» يعني النبوة؛ عن السدي وغيره. الزجاج: تعليم التوراة التي فيها حكم الله. وقيل علماً وفهماً. «وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ»

قوله تعالى: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» اختلف الناس في معنى هذا الكلام؛ فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: نعم وتربيتك نعمة عليّ من حيث عبّدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أي أتمنّ عليّ بأن ربيّنتي وليدأ وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ أي ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي؛ فكيف تذكر إحسانك إليّ على الخصوص؟ قال معناه قتادة (٣) وغيره. وقيل: فيه تقدير استفهام؛ أي أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش والفراء أيضاً وأنكره النحاس وغيره. قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم؛ كما قال الشاعر:

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَتَبَكَّرُ

ولا أعلم بين النحويين اختلافاً في هذا إلا شيئاً قاله الفراء. قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكى تروى زيداً منطلقاً بمعنى أتروى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة. قال الثعلبي: قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام؛ كقوله: «هَذَا رَبِّي» [الأنعام: ٧٨] «فَهُمُ الْخَالِدُونَ» [الأنبياء: ٣٤] قال الشاعر:

رَفُونِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تَرَعُ
فَقَلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجُوهَ هُمُ هُمُ

وأشدد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لَمْ أَسْ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَفَّتْهَا
وَقَوْلَهَا وَالرَّكَابُ وَأَقْفَةُ
وَجَفَّتْهَا مِنْ دَمِهَا شَرَقُ
تَرَكْتَنِي هَكَذَا وَتَنْطَلِقُ

قلت: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس. وقال الضحّاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتسبّيت يكون باستفهام وبغير استفهام؛ والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي؛ فأني نعمة لك عليّ فانت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به (٤). وقيل: معناه

(١) قراءة تفسيرية، وهي غير متواترة: تفسير الطبري (١٩ / ٦٧).

(٢) هذا القول غير موجود في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو موجود في النكت والعيون (٢ / ١٧٢، ١٧٣) عن أبي زيد.

(٣) صحيح: الطبري (١٩ / ٦٨) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٠ / ٤٠٥) في تفسيره.

(٤) ولعله قول جيد من ناحية الرأي، وذكره البغوي (٦ / ١١٠) دون عزو للضحّاك واختاره ابن كثير - رحمه الله =

كيف تمنّ بالترية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذل. و﴿أَنْ عَدَّتْ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿نِعْمَةٌ﴾ ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: لأن عبدت بني إسرائيل؛ أي اتخذتهم عبداً. يقال: عبدته وأعبدته بمعنى؛ قاله الفراء وأنشد:

عَلَامٌ يَعْبُدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ
فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاؤُوا وَعِبْدَانُ

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿قَالَ لِمَنْ آتَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ قَالَ أُولُو حِثْلِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ فَأَتَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْكُلُ مِنَ النَّبِيِّينَ إِنْ كُنَّا لَنَافِقِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلَمْ يَأْتِكُمْ مَوْعِدٌ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ مِنَ رَبِّكُمْ إِذُنَ غَافِلِينَ﴾ قَالُوا أَأَمْسَىٰ لَهُمْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْوَيْلُ مِنْ رَبِّهِمْ أَمْ لَهُمْ أَهْلٌ مَّوْتِرَةٌ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّهُمْ لَدُونَهُ لَأَوْسَعْتَ كُلُّ عَظْمَةٍ مِنْ عَضَاهُ وَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فَأَتَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿قَالَ آمَنْتُ لَهُ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ مِنْ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَكٰفِرُونَ﴾ قَالَ لَوْ أَنَّهُمْ لَدُونَهُ لَأَوْسَعْتَ كُلُّ عَظْمَةٍ مِنْ عَضَاهُ وَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّهُمْ لَدُونَهُ لَأَوْسَعْتَ كُلُّ عَظْمَةٍ مِنْ عَضَاهُ وَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على الترية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: رسول رب العالمين؛ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء. قال مكّي وغيره: كما يستفهم عن الاجناس فلذلك استفهم به ﴿مَا﴾. قال مكّي: وقد ورد له استفهام بـ«من» في موضع آخر ويشبه أنها مواطن؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا

جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراغة قبله كذلك^(١). فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوّن. فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إِن رَّسُولَكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم لَمَجْتُونٌ﴾ أي ليس يجيئني عما أسأل؛ فأجاب موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أن ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب؛ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما انقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثمَّ إلهاً غيره. وفي توعده بالسجن ضعف. وكان فيما يروى أنه يفرغ منه فرعاً شديداً حتى كان اللعين لا يسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل. وكان إذا سجن أحداً لم يخرج من سجنه حتى يموت، فكان مخوفاً. ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعد فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتضح لك به صدقي، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناه موضع معارضة، فـ ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سبويه؛ لأن ما تقدم يكفي منه. ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته. وقد تقدم بيان ذلك وشرحه في «الأعراف»^(٢) إلى آخر القصة. وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم. قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد^(٣). يقال: لا ضير ولا ضرور ولا ضرر ولا ضرور بمعنى واحد؛ قاله الهروي. وأنشد أبو عبيدة:

فإنك لا يَصُورُكَ بعدَ حَوْلٍ أَظْبِيَّ كَانَ أُمُّكَ أَمْ حَمَارُ

وقال الجوهري: ضَارَهُ يَضُورُهُ ويضيره ضَيْرًا وضوراً أي ضَرَّهُ. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يَصُورُني. والتصور الصباح والتلوي عند الضرب أو الجوع. والضورة بالضم الرجل الحقيير الصغير الشأن. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُقَلِّبُونَ﴾ يريد تنقلب إلى رب كريم رحيم ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب أي لأن كنا. وأجاز الفراء كسرهما على أن تكون

(١) قلت: إن فرعون - قبحه الله وأخراه - قد حاول بكلامه هذا صرف موسى عليه السلام عن أداء دعوته بشغله في أمور فرعية، وذلك لعدم امتلاكه حجة يرد بها على موسى عليه السلام، وهذا ما يجب أن يتبعه كل من سلك طريقه الدعوة، بالأبعاد الأمور الفرعية انتباهه.

(٢) عند الآية (١٠٧). (٣) انظر: أحكام القرآن (٣/ ١٤٣٥) لابن العربي المالكي.

مجازاة. ومعنى: ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفراء: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً^(١)، وهم الشُرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ روي ذلك عن ابن مسعود وغيره^(٢).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾^(٣١) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ^(٣٢) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ^(٣٣) وَإِنَّهُمْ لَنَا لِقَائٌ ظُونَ^(٣٤) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ^(٣٥) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^(٣٦) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ^(٣٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ^(٣٨) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ^(٣٩) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ^(٤٠) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ^(٤١) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ^(٤٢) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ^(٤٣) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ^(٤٤) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ^(٤٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(٤٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٤٧)

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحراً، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسر موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان. وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً. والله أعلم بصحته^(٣). وإنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشُرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشُرادم.

(١، ٢) سبق التشكيك في صحة هذا العدد، وهو منقطع بين ابن عبيدة وابن مسعود كما في تفسير الطبري (١٩/٧٥).

(٣) سبق التشكيك في هذا العدد، ثم هذه آثار مروية بأسانيد فيها مقال عن التابعين، فقد رواه ابن أبي خاتم (١٠/٤٣٠) في تفسيره، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد، وفي إسناده: موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جداً، وكذا عند الطبري (١٩/٧٥) في تفسيره.

ورواه الطبري (١٩/٧٥) في تفسيره عن قيس بن عباد، وعن مجاهد، وعن ابن جريج، ورواه ابن أبي حاتم مطولاً عن السدي (١٠/٤٣١) في تفسيره، والخبر إلى موسى عليه السلام منقطع، وروى أيضاً عن غيرهم، والسيوطي في الدر المنثور (٥/١٥٩).

قال الجوهري: الشُرْدَمَةُ الطائفة من الناس والقطعة من الشيء. وثوب شرادم أي قطع. وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جاء الشتاء وثيابي أخلاقُ
شرادمُ يضحكُ منها النَّوَّاقُ

النَّوَّاقُ من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها؛ قاله في الصحاح. واللام في قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ لام تأكيد وكثيراً ما تدخل في خبر ﴿إِنَّ﴾، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيداً لسوف يقوم. والدليل على أنه جائز قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف؛ قاله النحاس. ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لِعَائِطُونَ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم. ومات أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف» (١) و«طه» (٢) مستوفى. يقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاعتياط. أي غاظونا بخروجهم من غير إذن. ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ أي مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا. وقرئ ﴿حَادِرُونَ﴾ (٣) ومعناه معنى «حَدِرُونَ» أي فرقون خائفون. قال الجوهري: وقرئ «وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ» و«حَدِرُونَ» و«حَدِرُونَ» بضم الذال حكاه الأخفش؛ ومعنى «حَادِرُونَ» متاهبون، ومعنى «حَدِرُونَ» خائفون. قال النحاس: «حَدِرُونَ» قراءة المدنيين وأبي عمرو، وقراءة أهل الكوفة «حَادِرُونَ» وهي معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس؛ و«حَادِرُونَ» بالدال غير المعجمة قراءة أبي عباد وحكاها المهدي عن ابن أبي عمار، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْطِ بن عجلان. قال النحاس: أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى «حَدِرُونَ» و«حَادِرُونَ» واحد. وهو قول سيبويه وأجاز: هو حذر زيدا؛ كما يقال: حاذر زيدا، وأنشد:

حَدِرٌ أَمْوَرًا لَا تَضِيرُ وَأَمِنْ
مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ

وزعم أبو عمر الجرمي أنه يجوز هو حذر زيدا على حذف من. فأما أكثر النحويين فيفرون بين حذر وحاذر؛ منهم الكسائي والفاء ومحمد بن يزيد؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر، أي متيقظ متنبه، فإذا كان هكذا لم يتعد، ومعنى حاذر مستعد وبهذا جاء التفسير عن المتقدمين. قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ قال: مُؤَدُونَ في السلاح والكرع مُقُون، فهذا ذاك بعينه (٤). وقوله: مُؤَدُونَ معهم أداة. وقد قيل: إن المعنى: معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال؛ فأما «حَادِرُونَ» بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حذرة أي ممتلئة؛ أي نحن ممتلئون غيظاً عليهم؛ ومنه قول الشاعر:

وَعَيْنٌ لَهَا حَذْرَةٌ بَدْرَةٌ
شُقَّتْ مَاقِيَهُمَا مِنْ أُخْرٍ

وحكى أهل اللغة أنه يقال: رجل حاذر إذا كان ممتلئ اللحم؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح. المهدي: الحادر القوي الشديد.

(١) عند الآية (١٣٧).

(٢) عند الآيتين (٧٧، ٧٨).

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

(٤) إنما هو مقطوع على الأسود بن يزيد، وعلى ابن جريج، موقوف على ابن عباس، كما في تفسير الطبري

(١٩ / ٧٧)، وقاله النحاس (٣ / ١٨١) في إعراب القرآن غير مستند.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعَيْون﴾ يعني من أرض مصر. وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع. والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج سمردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهي متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلها. وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبروا وقدروا من قناطرها وجسورها وخلجانها^(١)؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان، ويخْلَع على ابن أبي الرداد؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن. وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس. وكانت أرض مصر جميعها تروى من إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعاً، ازداد في خراجها ألف ألف دينار. فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه إصبعاً واحداً من تسعة عشر ذراعاً نقص خراجها ألف ألف دينار. وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبعاً من تسعة عشر ذراعاً بمقياس مصر. وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ربه إلا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى.

قلت: أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها، وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا انصبت المياه في جميع الأرض حتى يسبح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمرابك والقياسات. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلك الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد الله عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال قيس بن الحجاج: لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤونة من أشهر القبط فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذلك؟ فقالوا: إذا كان لا تنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها؛ أرضينا أبويها، وحملنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل؛ فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله. فأقاموا أيب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير، وهموا بالجلعاء. فلما أرى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأعلمه بالقصة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا. وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه. وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلعاء والخروج منها؛

(١) النحاس (٥ / ٨٢) في معاني القرآن .

لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة في النيل . أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعاً ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة (١) . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سَيِّحَانُ وَجَيِّحَانُ والنيل والفرات . فسبحان نهر الماء في الجنة ، وجيحان نهر اللبن في الجنة ، والنيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة (٢) . وقال ابن لهيعة : الدجلة نهر اللبن في الجنة (٣) .

قلت : الذي في الصحيح من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «سَيِّحَانُ وَجَيِّحَانُ وَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ كُلُّهُنَّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» (٤) لفظ مسلم . وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رجل من قومه قال : وحدت نبي الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت : «يا جبريل ما هذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فههران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ مسلم (٥) . وقال البخاري من طريق شريك عن أنس «فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطْرُدَانِ» (٦) فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب يده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذي خبأ لك ربك (٧) . وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء . وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب (٨) . وفي الدخان ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ﴾ [الدخان : ٢٥ - ٢٦] . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها . وليس في الدخان ﴿وَكُنُوزٍ﴾ . ﴿وَكُنُوزٍ﴾ جمع كنز ؛ وقد مضى هذا في سورة «براءة» . والمراد بها هاهنا الخزائن . وقيل : الدفائن . وقال الضحاك : الأنهار ؛ وفيه نظر ؛ لأن العيون تشملها (٩) . ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر (١٠) ؛ وكانت ألف منبر لألف جبار يعظمون عليها فرعون ومُلُكُه (١١) . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء ؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان (١٢) . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم (١٣) . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهذا (١٤) . وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عدة وزينة فصار مقامها أكرم منزل بهذا ؛ ذكره الماوردي . والأظهر أنها المساكن

(١) رأيت في مناقب عمر (ص ١٤٣) لابن الجوزي - منقطعاً .

(٢) ، ٣) كلام من قبل الرأي ولا دليل له .

(٤) ، ٥) صحيحان : وقد سبقا .

(٦) يَطْرُدَانِ : يجريان (وهما يتفعلان من الطرد) كما في النهاية (٣ / ١١٧) لابن الأثير .

(٧) صحيح : وقد سبق .

وانظر : الصحيحة (٢٠٥ ، ٨٨٨ ، ١٥٣٥) للآباني - رحمه الله .

(٨) لم أهد إليه مستنداً .

(٩) - ١٤) أسانيد فيها مقال ، وإن صح المتن فهي منقولة عن مسلمة بنى إسرائيل ، وانظر : ابن عطية (١٢ / ٦٣ ،

٦٤) في المحرر الوجيز ، والماوردي (٣ / ١٧٥ ، ١٧٦) في التكت والعيون . ورواه ابن أبي حاتم (٥ / ٣١٢)

في تفسيره ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما كما في فتح القدير (٥ / ٣١٢) للشوكاني .

الحسان كانت تكرم عليهما. والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدراً. قال النحاس: المقام في اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحداً مقامة؛ كما قال:

وفيهم مقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم
وأنديةٌ يتنابها القولُ والفعلُ

والمقام أيضاً المصدر من قام يقوم. والمقام بالضم الموضع من أقام. والمصدر أيضاً من أقام يقيم. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنبي إسرائيل. قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه^(١). وقيل: أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى^(٢).

قلت: وكلا الأمرين حصل لهم. والحمد لله. ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل. قال السدي: حين أشرقت الشمس بالشعاع^(٣). وقال قتادة: حين أشرقت الأرض بالضياء^(٤). قال الزجاج: يقال شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. واختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما: لاشتغالهم بدفن أبنائهم في تلك الليلة؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم؛ فقله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال لقوم فرعون. الثاني: إن سحابة أظلمت وظلمة فقالوا: نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا^(٥). وقال أبو عبيدة: معنى ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ بالتشديد وألف الوصل؛ أي نحو المشرق؛ مأخوذ من قولهم: شَرِقَ وغَرِبَ إذا سار نحو المشرق والمغرب. ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بني إسرائيل مشرقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ﴾ أي تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أي قرب منا العدو ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة ﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ بالتخفيف من أدرك. ومنه ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠] وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهري «لَمُدْرِكُونَ» بتشديد الدال من أدرك. قال الفراء: حفر واحترق بمعنى واحد، وكذلك ﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ و«لَمُدْرِكُونَ» بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحدائق؛ إنما يقولون: مُدْرِكُونَ ملحقون، ومدركون مجتهد في لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٩٣) غير معزو للحسن.

(٢) هذا لا يصح، فإنهم سرقوها وصنعوا منها العجل - كما مضى في سورة طه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٢٩) في تفسيره.

(٥) والأول الأشهر بين المؤرخين، والله أعلم، ولكنه مأخوذ من الإسرائيليات أيضاً، ولم يذكر - رحمه الله - هنا أن المسافة التي يقطعها جيش منظم كجيش فرعون للوصول إلى هذا المكان بعد تجميع هذا الجيش وإصدار الأوامر قد تستغرق مدة طويلة، وهو أمر مشهور في الجيوش النظامية، والله أعلم.

والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ فردّ عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّا﴾ أي لم يدركوكم ﴿إِن مَّعِيَ رَبِّي﴾ أي بالنصر على العدو. ﴿سَيَهْدِين﴾ أي سيدلني على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. وقد مضى في «البقرة» ^(١) قصة هذا البحر. ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، أي الجبل العظيم. والطود الجبل؛ ومنه قول امرئ القيس:

فبينما المرء في الأحياء طودٌ رمَاهُ الناسُ عن كَتَبٍ فَمَالاً

وقال الأسود بن يعفر:

حلُّوا بأنقرة يسيلُ عليهمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أطوَادِ

جمع طود أي جبل. فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يساً؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم في «يونس» ^(٢) انصب عليهم وغرق فرعون؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه. وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قال له بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينلق؛ فقال له: افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة» ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَلْنَاكُمْ إِلَى الْبَحْرِ﴾ أي قربناهم إلى البحر؛ يعني فرعون وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مَضَى أو ليلةٌ سَلَقَتْ فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَرْدَلُفُ

أبو عبيدة: ﴿أَرْزَلْنَاكُمْ﴾ جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع. وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبي بن كعب وابن عباس: ﴿وَأَرْزَلْنَاكُمْ﴾ بالقاف على معنى أهلكتناهم؛ من قوله: أرزقت الناقة وأرزلت الفرسُ فهي مُرْزِقٌ إذا أرزلت ولدها. ﴿وَأَجْمِنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٤) ثم أغرقنا الآخرين﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَةٌ﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسية امرأة فرعون، ومريم بنت دا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال موسى: فأيكم يدري قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛ فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا

(١) عند الآية (٥٠).

(٢) عند الآية (٩٠).

والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة؛ فنقل عليه، فقيل له: أعطها حكمها؛ فدلّتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أفلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار في رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل، فأتت بهم إلى بحيرة، فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء فانضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فتيّنت لهم الطريق مثل ضوء النهار (١). وقد مضى في «يوسف». وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجتك» قال: ناقة أرحلها وأعزنا أحلبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حاك هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة (٢).

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً ﴿١٦﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَافِعِينَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٢١﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ نَبَأُ المَشْرِكِينَ على فِطْرَتِهِمْ إِذْ رَغِبُوا عَنِ اعْتِقَادِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ وَهُوَ أَبُوهُمْ. وَالنَّبَأُ الخَبْرُ؛ أَي اقْصَصْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ خَبْرَهُ وَحَدِيثَهُ وَعَيْبَهُ عَلَى قَوْمِهِ مَا يَعْبدُونَ. وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَلْزَمًا لَهُمُ الحِجَّةَ. وَالْجَمْهُورُ مِنَ القِرَاءِ على تَخْفِيفِ الهمزة الثانية وَهُوَ أَحْسَنُ الوُجُوهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا على تَخْفِيفِ الثانيةِ مِنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ نَحْوِ «آدَمَ». وَإِنْ شِئْتَ حَقَّقْتَهُمَا فَقُلْتُ: «نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ». وَإِنْ شِئْتَ خَفَّفْتَ الأَوَّلَى. وَثُمَّ وَجَّهْتُ خَامِسَ إِلا أَنَّهُ بَعِيدٌ فِي العَرَبِيَّةِ وَهُوَ أَنْ يَدْغَمَ الهمزة فِي الهمزةِ كَمَا يُقَالُ رَأْسٌ لِلَّذِي يَبِيعُ الرُّؤُوسَ. وَإِنَّمَا بَعْدَ لِأَنَّكَ تَجْمَعُ بَيْنَ هِمزَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَحَسُنَ فِي فِعَالٍ لِأَنَّهُ لَا يَأْتِي إِلا مَدْغَمًا. ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَي أَي شَيْءٍ تَعْبُدُونَ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وَكَانَتْ أَصْنَامُهُمْ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَنَحَاسٍ وَحَدِيدٍ وَخَشَبٍ. ﴿فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً﴾ أَي فَتَقِيمُ على عِبَادَتِهَا. وَليس المراد وقتاً معيناً بل هو إِخْبَارٌ عَمَّا هُمْ فِيهِ. وَقِيلَ: كَانُوا يَعْبدُونَهَا بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ، وَكَانُوا فِي اللَّيْلِ يَعْبدُونَ الكَوَاكِبَ. فيقال: ظِلٌّ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ نَهَاراً وَبَاتٍ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ لَيْلاً. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قَالَ الأَخْفَشُ: فِيهِ حَذْفٌ؛ وَالمَعْنَى: هَلْ يَسْمَعُونَ مِنْكُمْ؟ أَوْ هَلْ يَسْمَعُونَ دَعَاءَكُمْ؟ قَالَ الشَّاعِرُ:

القائد الحليلُ منْكُوباً دَوَابِرَها قَدْ أَحْكَمَتْ حِكْمَاتِ القَدِّ وَالْأَبْقَا

قال: وَالْأَبْقَى الكَثَانُ فَحَذْفٌ. وَالمَعْنَى: وَأَحْكَمَتْ حِكْمَاتِ الأَبْقَى. وَفِي الصَّحاحِ: وَالْأَبْقَى

(١، ٢) صحيح مرفوع، وفي الإسناد الموقوف والمقطوع مقال: رواه ابن حبان (٧٢٣) في صحيحه، والحاكم (٣٥٢٣) في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الهيثمي (١٠٠ / ١٧٠، ١٧١) في مجمع الزوائد وعزاه لأحمد وأبي يعلى وقال: «ورجال أبي يعلى رجال الصحيح»، وصححه الألباني - رحمه الله (٣١٣) في الصحيحة، وقد روى موقوفاً عن جمع من الصحابة والتابعين وفي أسانيدهم مقال.

بالتحريك القنَّب. وروي عن قتادة أنه قرأ «هَلْ يُسْمَعُونَكُمْ» بضم الياء؛ أي هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذ تَدْعُونَ (٧٧) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ﴾ أي هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضرراً إن عصيتم؟ وهذا استفهام لتقرير الحجة؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضرروا فما معنى عبادتكم لها. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فترعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل. وقد مضى القول فيه. قال إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ﴾ الأولون ﴿فَأِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ واحد يُوَدِّي عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة هي عدوُّ الله وعدوةُ الله؛ حكاهما الفراء. قال علي بن سليمان: من قال عدوةُ الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية، ومن قال: عدوٌّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. ووصف الجهاد بالعداوة بمعنى أنهم عدوٌّ لي إن عبدتهم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨٢]. وقال الفراء: هو من المقلوب؛ مجازه فإني عدوٌّ لهم لأن من عاديته عاداك. ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الكلبي: أي إلا من عبد رب العالمين؛ إلا عابد رب العالمين؛ فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزجاج: قال النحويون هو استثناء ليس من الأول؛ وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تيراً مما يعبدون إلا الله. وتأوله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتهم عدوٌّ لي يوم القيامة؛ على ما ذكرنا. وقال الجرجاني: تقديره: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوٌّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] أي دون الموتة الأولى.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٨﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨١﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يرشدني إلى الدين. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني. ودخول ﴿هُوَ﴾ تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي؛ كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا؛ أي لم يفعله غيره. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعاً. ونظيره قول فتى موسى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]. ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب؛ فيبين أن الله هو الذي يميت ويحيي. وكله بغير ياء: ﴿يَهْدِينِ﴾ ﴿يَشْفِينِ﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لستفق كلها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعله. فإن قيل: فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلاً على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

قلت: وتجوَّز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم. فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجهان: أحدهما: إذا مرضت

بمخالفته شفاني برحمته. الثاني: إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحق. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة. وتأولوا قوله: «وَالَّذِي يُعِيْتِي ثُمَّ يُحِينِ» على ثلاثة أوجه: فالذي يميتني بالمعاصي يحييني بالطاعات. الثاني: يميتني بالخوف يحييني بالرجاء. الثالث: يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة. وقول رابع: يميتني بالعدل ويحييني بالفضل. وقول خامس: يميتني بالفراق ويحييني بالطلاق. وقول سادس: يميتني بالجهل ويحييني بالعقل؛ إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال. والله أعلم^(١).

قوله تعالى: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» «أَطْمَعُ» أي أرجو. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواء. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق «خَطَايَايَ» وقال: ليست خطيئة واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا معروف في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عز وجل: «فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ» [الملك: ١١] ومعناه بذنوبهم. وكذا «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» [البقرة: ٤٣] معناه الصلوات. وكذا «خَطِيئَتِي» إن كانت خطايا. والله أعلم. قال مجاهد: يعني بخطيئته قوله: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» [الأنبياء: ١١٣] وقوله: «إِنِّي سَقِيمٌ» [الصفات: ٨٩]، وقوله: «إِنْ سَارَةَ أُخْتَهُ»^(٢). زاد الحسن: وقوله للكوكب: «هَذَا رَبِّي» [الأنعام: ٧٤] وقد مضى بيان هذا مستوفى^(٣). وقال الزجاج: الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها. «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له^(٤). وفي «صحيح مسلم» عن عائشة: قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوماً: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»^(٥).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾
وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

(١) هذه معان بعيدة عن معنى الآية، فإبراهيم عليه السلام يعرفهم بالخالق سبحانه، فلا تحمل كلماته السهلة هذا التأويل البعيد الذي يشبه كلام المتصوفة والزنادقة منهم والفلاسفة، ومستحيل أن يكون في عقيدة الأنبياء هذا التفرع المقيت، والتفريق المذموم شرعاً و عقلاً.

(٢) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ٨٤) في تفسيره من طريق ابن أبي نجیح عنه به.

(٣) رواه البغوي (٦/ ١١٨) في تفسيره غير مسند إليه.

(٤) هذه كلام سبق القول بطلانه.

(٥) صحيح: مسلم (٢١٤) في الإيمان، وابن جدعان هو (عبد الله بن جدعان) أحد أجواد الجاهلية، كان من المطعمين في السنين المحملة والأوقات المرملة. وانظر: البداية والنهاية (٢/ ٥٩٨) لابن كثير - رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿حُكْمًا﴾ معرفة بك وبحدودك وأحكامك؛ قاله ابن عباس (١). وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجع إلى الأول. وقال الكلبي: نبوة ورسالة إلى الخلق (٢). ﴿أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي بالنبين من قبلي في الدرجة. وقال ابن عباس: بأهل الجنة (٣)؛ وهو تأكيد قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه (٤). وقال مجاهد: هو الثناء الحسن (٥). قال ابن عطية (٦): هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين؛ وكذلك أجاب الله دعوته، وكل أمة تمسك به وتعظمه، وهو على الحنيفة التي جاء بها محمد ﷺ. وقال مكّي: وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق؛ فأجبت الدعوة في محمد ﷺ (٧). قال ابن عطية: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد (٨).

قلت: وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة، والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام. قال القتيبي: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تكني العرب بها عن الكلمة. قال الأعشى:

إِنِّي أَتَيْتُ لِسَانَ لَا أَسْرُبُهَا
مِنْ عَلْوٍ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرٌ

قال الجوهري: يروى من علو بضم الواو وفتحها وكسرهما. أي أتاني خير من أعلى، والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر. روى أشهب عن مالك قال: قال الله عز وجل: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ ﴿٣٩﴾، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا، فنبه تعالى بقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ

قال ابن العربي (٩): قال المحققون من شيوخ الزهد: في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» (١٠) الحديث وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطاً يكتب له عمله إلى يوم القيامة. وقد بيناه في آخر «آل عمران» (١١) والحمد لله.

(١ - ٥) البغوي (٦ / ١١٨) في تفسيره، وزاد المسير (٤ / ٤٩٦)، عن ابن عباس - رضي الله عنهما .

(٦ - ٨) المحرر الوجيز (١٢ / ٦٨) .

(٩) أحكام القرآن (٣ / ١٤٣٦) .

(١٠) صحيح: وقد سبق، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(١١) عند الآية (٢٠٠) .

قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها، وهو يرد قول بعضهم: لا أسأل جنة ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه. وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي المشركين. و﴿كَانَ﴾ وثائفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة» (١) والغبرة هي القترة. وعنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين» (٢) انفرد بهما البخاري رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بدل من ﴿يَوْمٍ﴾ الأول. أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوان؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل: ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أي لم ينفعه إبراهيم. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو استثناء من الكافرين؛ أي لا ينفعه ماله ولا بنوه. وقيل: هو استثناء من غير الجنس، أي لكن ﴿مَنْ آمَنَ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ينفعه سلامة قلبه. وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح. وقد تقدّم في أول «البقرة» (٣). واختلف في القلب السليم فقيل: من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين (٤). وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠٠] (٥) وقال أبو عثمان السيارى: هو القلب الخالي عن البدعة المظمئن إلى السنة. وقال الحسن: سليم من آفة المال والبنين (٦). وقال الجنيد: السليم في اللغة اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله. وقال الضحاك: السليم الخالص (٧).

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة؛ والله أعلم. وقد روي عن عروة أنه قال: يا بني لا تكونوا لعانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨). وقال محمد بن سيرين:

(١) صحيح: البخاري (٣٣٥٠) في أحاديث الأنبياء.

(٢) صحيح: البخاري (٤٧٦٩) في التفسير.

(٣) عند الآيات (٧ - ١٠).

(٤) صحيح إلهيم: الطبري (١٩ / ٨٦) في تفسيره، وهو قول الحسن كما في زاد المسير (٤ / ٤٩٦).

(٥) ذكره ابن الجوزي (٤ / ٤٩٦) في زاد المسير، وابن كثير (٦ / ٤٨) في تفسيره.

(٦) البغوي (٦ / ١١٩) في تفسيره، وابن كثير (٦ / ٤٨) في تفسيره.

(٧) تالف الإسناد: الطبري (١٩ / ٨٦) في تفسيره، وفي إسناده جوير، عن الضحاك وهو تالف الإسناد.

(٨) أحكام القرآن (٣ / ٣٧ ١٤) للقاضي ابن العربي المالكي، ورواه ابن أبي حاتم بصيغة التمرريض فقال: وذكر، عن

عثمان بن علي، عن هشام، عن أبيه به - كما في تفسيره (١٠ / ٤٥٩).

القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور^(١). وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفندة الطير»^(٢) يريد والله أعلم أنها مثلها في أنها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب، لا خيرة لهم بأمور الدنيا؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «أكثر أهل الجنة البله»^(٣) وهو حديث صحيح. أي البله عن معاصي الله. قال الأزهري: الأبله هنا هو الذي طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه. وقال القتيبي: البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس.

﴿ وَأَزَلَّكَ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَبَرَزْتَ الْأَجْحِيمُ لِلْعَاوِينَ ﴿١٠١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٠٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٠٣﴾ فَكَيْبُكُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُونَ ﴿١٠٤﴾ وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٧﴾ إِذْ نَسَوَكُمْ رَبِّبِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأُمُجِرُونَ ﴿١٠٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَأَزَلَّكَ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي قربت وأدريت ليدخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها. ﴿ وَبَرَزْتَ ﴾ أي أظهرت ﴿ الْأَجْحِيمِ ﴾ يعني جهنم. ﴿ لِلْعَاوِينَ ﴾ أي الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أي تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة. ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ من دون الله ﴿ من الأصنام والأنداد ﴾ ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴾ من عذاب الله ﴿ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. ﴿ فَكَيْبُكُوا فِيهَا ﴾ أي قلبوا على رؤوسهم. وقيل: دهوروا وألقى بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. مأخوذ من الكبكية وهي الجماعة؛ قاله الهروي. وقال النحاس: هو مشتق من كَوَّكَبَ الشيء أي معظمه. والجماعة من الخيل كَوَّكَبَ وكَبَّكَبَ. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا في النار^(٤). وقال مجاهد: دهوروا^(٥). وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته في مهوأة. يقال: هو يدهور اللقم إذا كبرها. ويقال في الدعاء: كَبَّ اللَّهُ عَدُوَّ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَقَالُ: أَكَبَهُ.

(١) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ٨٦) في تفسيره، وابن كثير (٦/ ١٤٨) في تفسيره، والبغوي (٦/ ١١٩) في تفسيره.

(٢) صحيح: مسلم (٢٨٤٠) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) ضعيف: الهيثمي (٨/ ٧٩) في المجمع، عن أنس - رضي الله عنه وعزاه للبخاري وقال: «وفيه سلامة بن روح

وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أحمد بن صالح وغيره، وروايته عن عقيل وجادة فلم يلقه».

قلت: وفي تهذيب التهذيب (٤/ ٢٥٣): «قال أبو زرعة: ضعيف منكر الحديث فهو إلى الضعف أقرب»، وضعفه الألباني (١٠٩٦) في ضعيف الجامع.

(٤) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما. الطبري (١٩/ ٨٧) في تفسيره.

(٥) ضعيف إليه: السابق (١٩/ ٨٧) من طريق ابن جريج، عن مجاهد وهو منقطع.

وكبكه، أي كبه وقلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا﴾ والأصل كَبَّبُوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقلاً لاجتماع الباءات. قال السدي: الضمير في ﴿كَبَّبُوا﴾ لشركي العرب ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ الآلهة. ﴿وَجَنُودَ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فاتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ هم الشياطين^(١) وقيل: إنما تلقى الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حيثنذ. ﴿تَاللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نَسُوا بَرَبَهُمُ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ إبليس وابن آدم القتاتل هما أول من سن الكفر والقتل وأنواع المعاصي^(٢). ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أي شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبين والمؤمنين. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي صديق مشفق؛ وكان علي رضي الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة؛ ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿الزَمْخَشَرِي﴾: وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحده الصديق لقلته؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق في وداك الذي يهيمه ما يهيمك فأعز من بيض الأنوق؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب والخاص؛ ومنه حامة الرجل أي أقرباؤه. وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمَامُ والحُمَّى؛ فحامة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: هم حزانته أي يحزنهم ما يحزنه. ويقال: حَمَّ الشَّيْءُ وَأَحَمَّ إِذَا قَرَّبَ، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يَحُمِّي لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحمية. وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم^(٣). ويجوز «وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» بالرفع على موضع ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾؛ لأن ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾ في موضع رفع. وجمع صديق أصدقاء وصدقاء وصادق. ولا يقال صدُق للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيون: أنه يقال في جمعه صدقان. النحاس: وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورغفان. وحكوا أيضاً صديق وأصدق. وأفعال إنما هو جمع أفعل إذا لم يكن نعتاً نحو أشجع وأشاجع. ويقال: صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر:

نَظِيرُ الْهُوَى ثُمَّ ارْتَمِينَ قَلُوبَنَا
بِأَعْيُنِ أَعْدَاءٍ وَهُنَّ صَدِيقُ

(١) صحیح إلى قتادة: السابق (٨٧/١٩)، وانظر باقي الأقوال عند البغوي (٦/ ١١٩) في تفسيره.
(٢) هو هكذا غير مستند عند البغوي (٦/ ١٢٠) في تفسيره، ورايته عند الطبري (٨٨/ ١٩) في تفسيره من طريق ابن جريج، عن عكرمة.

ورواه ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٦٢) في تفسيره، عن أبي العالية.

(٣) رواه الطبري (٨٨/ ١٩) في تفسيره، وفيه إسحاق بن سعيد البصري المسمعي، عن يحيى بن سعيد المسمعي ولم أعرفهما.

ويقال: فلان صديق أي أحصأ صدقاني، وإما يصغر على جهة المدح؛ كقول حباب ابن المنذر: (أنا جدي لها المحكك، وعديتها المرجب) ذكره الجوهري. النحاس: وجمع حميم أحماء وأحمة وكرهوا أفعلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ ﴿١١٦﴾﴾ ﴿أَنَّ﴾ في موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمننا حتى يكون لنا شفعاء. تمنوا حين لا ينفعهم التمني. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الحميم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون: مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١٧﴾». وقال الحسن: ما اجتمع ملاً على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون. وقال كعب: إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يجر إلى النار، فيقول له أخوه: والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها، خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف. قال: فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة. ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ تقدم والحمد لله.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٨﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٨﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوِ تَشْعُرُونَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٨﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَسْتَوْخُوا لَتُكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَانْفُتِحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فِتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٨﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصدق جميع الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في النبوة وفيما أخبرهم به من مسجئ المرسلين بعده. وقيل: ذكر

(١) ضعيف: البغوي (٦/ ١٢٠) في تفسيره، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد ساقه البغوي من

طريق الثعلبي وفيه:

- الوليد بن مسلم وهو يدلّس بتدليس التسوية.

- وقد أبهم الوليد من سماع أبي الزبير، عن جابر.

فالإسناد ضعيف لا محالة.

الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقد مضى هذا في «الفرقان»^(١). ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين. وقيل: هي أخوة المجانسة^(٢). قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد مضى هذا في «الأعراف». وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني تميم. يريدون يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيت الحماسة:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّاتِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تتقون الله في عبادة الأصنام. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى. وقيل: ﴿أَمِينٌ﴾ فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد ﷺ في قريش. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به من الإيمان. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا طمع لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ أي ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرر تأكيداً. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْزَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْزَمْنَا لَكَ﴾ أي نصدق قولك. ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ الواو للحال وفيه إضمار قد، أي وقد اتبعك. ﴿الْأَرْدَلُونَ﴾ جمع الأردل، المكسر الأراذل والائنتى الرذلى والجمع الرذّل. قال النحاس: ولا يجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه. وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم «وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْدَلُونَ»^(٣). النحاس: وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بـ«قد». وأتباع جمع تبع وتببع يكون للواحد والجمع. قال الشاعر:

لَهُ تَبِعٌ قَدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ
عَلَىٰ مِنْ يُدَانِي صَيْفٌ وَرَبِيعٌ

ارتفاع «أَتْبَاعُكَ» يجوز أن يكون بالابتداء و﴿الْأَرْدَلُونَ﴾ الخبر؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأردلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنْزَمْنَا لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأردلون فنعدّ منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾ وقد مضى القول في الأراذل في سورة «هود»^(٤) مستوفى. ونزيده هنا بياناً وهي المسألة:

الثانية: فقيل: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكناته وبنو بنيه. واختلف هل كان معهم غيرهم أم لا. وعلى أي الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح: ﴿وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذين اتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم بل الأردلون هم المكذبون لهم. قال

(١) عند الآية (٣٧)

(٢) وفي هذا ردُّ على القائلين بإخوة المسلمين وغير المسلمين ليهدموا عقيدة الولاء والبراء فيمبعوها باسم الدين، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

(٤) عند الآية (٢٧).

السهيلي: وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية: هم الحاكّة والحجامون. ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبي الله واتباعهم له مشرفاً كما تشرف بلالٌ وسَلْمَانٌ بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبي ﷺ ومن أكابريهم، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجامين، ولا قول الكفرة في الحاكّة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أزدلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّاً ولا نقصاً؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقاتلهم أصلاً؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ «كان» زائدة؛ والمعنى: وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع؛ وكانهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم آف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم. وقيل: المعنى إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلّكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم. وقراءة العامة: ﴿تَشْعُرُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عبلةً ومحمد بن السَّمِيعُ: «لو يشعرون» بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]. وروي أن رجلاً سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكانهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش. ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ﴾ أي عن سب آلهمنا وعيب ديننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي بالحجارة؛ قاله قتادة^(١). وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين^(٢). قال الثمالي: كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في مريم: ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمِكَ﴾ [مريم: ٤٦] أي لأسينك. وقيل: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين؛ قاله السدي^(٣). ومنه قول أبي دؤاد: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [١٧٧] فافتح بيتي وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين. قال ذلك لما يشس من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم. ﴿فَأَجْبِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها. والمشحون المملوء، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم. ولم يؤنث الفلك هاهنا؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٢] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

(١) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٦٨) في تفسيره.

(٢) هو قول مقاتل كما عند البغوي (٦ / ١٢١) في تفسيره غير مستند.

(٣) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٦٨) في تفسيره.

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٤٠﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٤١﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ الَّذِي أَتَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٣﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٤٤﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٥﴾ إِنْ أَنْخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٦﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٧﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ التائب بمعنى القبيلة والجماعة. وتكذيبهم المرسلين كما تقدم. ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٣٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٣٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ (١٣٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بين المعنى وقد تقدم. قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الربيع ما ارتفع من الأرض (١) في قول ابن عباس وغيره، جمع ربيعة. وكم ريع أرضك أي كم ارتفاعها. وقال قتادة: الربيع الطريق. وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي. وقاله ابن عباس أيضاً (٢). ومنه قول المسيب بن علس:

في الآلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا
رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلُ

شبه الطريق بشوب أبيض. النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريعٌ وللطريق ريعٌ. قال الشاعر:

طَرِيقُ الْخَوَافِي مَشْرُقٌ فَوْقَ رِيعَةٍ
نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيَشِهِ يَتَرَقَرُقُ

وقال عمارة: الربيع الجبل الواحد ربيعة والجمع زيباع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين (٣). وعنه الثنية الصغيرة (٤). وعنه: المنطرة (٥). وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالا طوالاً ليهتدوا بها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ آيَةٌ ﴾ أي علامة. وعن مجاهد:

(١) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٩ / ٩٢) في تفسيره، وهو منقطع بين علي بن أبي طلحة الوالبي، وابن عباس - رضي الله عنهما، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٥).
(٢) صحيح إلى قتادة، وضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٩ / ٩٣)، (١٩ / ٩٢) على الترتيب، ومنقطع إلى الضحاك.

رواه ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٦) عن ابن عباس من طريق العوفيين.

(٣) كذا غير مستند عند الماوردي، ورايته صحيحاً عند ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٥) في تفسيره من طريق ابن أبي نجیح، به، ومنقطعاً، من طريق ابن جريج به.

(٤) صحيح إليه: الطبري (١٩ / ٩٣) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٥) في تفسيره.

(٥) انظر: فتح القدير (٥ / ٣٢١) للشوكاني.

الريع بنيان الحَمَام (١) دليله ﴿تَعْتَبُونَ﴾ أي تلعبون؛ أي تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبتون بمن يمر في الطريق. أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشفروا على السابلة فتسخروا منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم (٢)؛ ذكره الماوردي. وقال ابن الأعرابي: الريع الصومعة، والريع البرج من الحمام يكون في الصحراء. والريع التلُّ العالي. وفي الريع لغتان؛ كسر الراء وفتحها وجمعها أرباع؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي منازل؛ قاله الكلبي. وقيل: حُصُونًا مشيدة؛ قاله ابن عباس ومجاهد (٣). ومنه قول الشاعر:

تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قَفَارًا
وَهَدَمْنَا الْمَصَانِعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل: قصوراً مشيدة؛ وقاله مجاهد أيضاً. وعنه؛ بروج الحمام (٤)؛ وقاله السدي.

قلت: وفيه بعد عن مجاهد؛ لأنه تقدّم عنه في الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجل للماء تحت الأرض. وكذا قال الزجاج: إنها مصانع الماء، واحدها مُصَنَّعة ومَصْنَعٌ. ومنه قول لبيد:

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ
وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

الجوهري: المصنعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنعة بضم النون. والمصانع الحصون. وقال أبو عبيدة: يقال لكل بناء مصنعة. حكاه المهدي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كي تخلدوا. وقيل: «لعل» استفهام بمعنى التوبيخ أي فهل ﴿تَخْلُدُونَ﴾ كقولك: لعلك تشتمني أي هل تشتمني. روي معناه عن ابن زيد. وقال القراء: كيما تخلدون لا تفكرون في الموت. وقال ابن عباس وفتادة: كأنكم خالدون باقون فيها (٥). وفي بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ تُخْلَدُونَ» ذكره النحاس. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ» (٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جِبَارِينَ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعرف. وقد بَطَشَ به يبطش وبيطش ببطشاً. وباطشه مباطشة. وقال ابن عباس ومجاهد: البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط (٧). ومعنى ذلك: فعلتم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضرب بالسياط (٨)؛ ورواه مالك

(١)، (٤) في إسناده نظر: ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٦) في تفسيره.

(٢) ذكره الشوكاني (٥ / ٣٢٢) في فتح القدير غير مسند.

(٣) صحيح إلى مجاهد: الطبري (١٩ / ٩٤) في تفسيره.

(٥) ضعيف إلى ابن عباس وصحيح إلى قتادة: للانقطاع بينه وبين علي بن أبي طلحة الوالبي، ورواهما الطبري

(١٩ / ٩٤) في تفسيره، وهما عند ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٨) في تفسيره.

(٦) هي قراءة محمولة على التفسير وإلا فهي شاذة.

(٧)، (٨) صحيح بمجموع طرقه إلى مجاهد: ابن أبي حاتم (١٠ / ٤٧٩) في تفسيره، وقول ابن عباس من رواية

الضحك كما في السابق (١٠ / ٤٧٨). ومعنى جبارين: أقوياء، ولم أجد قول القرطبي مسنداً، والله أعلم.

أي اختلاقهم وكذبهم، ومن قرأ: ﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدثنا فلان بأحدِيث الخلق أي بالخبرافات والأحاديث المفتعلة. وقال ابن الأعرابي: الخلقُ الدين والخلقُ الطبع والخلقُ المرءة. قال النحاس: ﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ عند الفراء يعني عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: ﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»^(١) أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكمل إيماناً من السيء الخلق الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: حكي لنا عن محمد بن يزيد أن معنى ﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ تكذيبهم وتخربهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأن فيها مدح آبائهم، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وعن أبي قلابة: أنه قرأ «خلق» بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف «خلق». ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع. وقد قيل: إن معنى ﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ دين الأولين. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَسِّرُنَا خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] أي دين الله. و﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ عادة الأولين: حياة ثم موت ولا بعث. وقيل: ما هذا الذي أنكرت علينا من البنين والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على ما نفعل. وقيل؛ المعنى خلق أجسام الأولين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في «الحاقة». ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: أسلم معه ثلثمائة ألف ومثون وهلك باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ صَلْحُوا لَنَا تَتَّقُونَ ﴿١١٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ أَتَتَّكَبُونَ فِي مَا هَدَيْنَاكُمْ مَنِينٌ ﴿١١٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعْيُونٌ ﴿١١٧﴾ وَزُرُوعٌ وَخَلٌّ طَلْمَهَا هُضِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَسْرِهِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٢١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٢٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَشَايَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٢٥﴾ وَلَا تَسْوَأُوا بِسُوءِ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾ فَعَمَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٢٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾

(١) حسن صحيح: أبو داود (٤٦٨٢) في السنة، والترمذي (١١٦٢) في الرضاع وصححه الالباني في الموضعين، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحجر كما تقدم في «الحجر»^(١)، وهي ذوات نخل وزروع ومياه. ﴿أَتْرَكُونَا فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ يعني في الدنيا آمينين من الموت والعذاب. قال ابن عباس: كانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم^(٢). ودل على هذا قوله: ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ففرعهم صالح ووبخهم وقال: أنتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٤٧) و﴿زُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ﴾ الزمخشري: فإن قلت لم قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾ والجنتات تتناول النخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليدكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ
من النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سَحْحًا

يعني النخل؛ والنخلة السحوق البعيدة الطول.

قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تبييناً على انفرادها عنها بفضلها عنها. والثاني: أن يريد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل. والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف؛ في جوفه شماريخ القنوي، والقنوي اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. و﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف ما دام في كَفْرَاهُ. والهضيم اللطيف الدقيق^(٣)؛ ومنه قول امرئ القيس:

عَلِيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخِلِ

الجوهري: ويقال للطلع هَضِيمٌ ما لم يخرج من كَفْرَاهُ؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر؛ ومنه رجل هضيم الجنين أي منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة. وحكى الماوردي وغيره في ذلك اثني عشر قولاً^(٤): أحدها: أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة. الثاني: هو المذئب من الرطب؛ قاله سعيد بن جبير. قال النحاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد هو ابن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي ﴿وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: منه ما قد أرطب ومنه مذئب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى؛ قاله

(١) عند الآية (١٨٠).

(٢) لم أهدت إليه مسنداً، وقد سبق بنحوه ضعيفاً مرفوعاً.

(٣) ذكره البغوي غير مسند (١٢٤ / ٦) في تفسيره، وإنما نسب قول: (لطيف) إلى ابن عباس - رضي الله عنهما والباقي قال: من قول أهل اللغة.

(٤) قوله: البائع التضييع لابن عباس ضعيف - كما عند الطبري (٩٩ / ١٩) في تفسيره لأنه من طريق العوفيين واختاره الطبري.

- وَقَوْلُ عَكْرَمَةَ ضَعِيفٌ كَمَا فِي السَّابِقِ (٩٩ / ١٩) بسبب رواية سماك عنه.

- وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ صَحِيحٌ إِلَيْهِ كَمَا فِي السَّابِقِ.

- وَقَوْلُ الضَّحَّاكِ مُنْقَطِعٌ كَمَا عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٤٩ / ١٠)

- وَبَاقِي الْأَقْوَالِ انظُرْهَا عِنْدَ: الْبَغْوِيِّ (١٢٤ / ٦) فِي تَفْسِيرِهِ غَيْرِ مُسْنَدِهِ، وَفِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٣) لِابْنِ الْجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ.

- وَقَوْلُهُ عَنِ يَزِيدٍ: إِنَّمَا هُوَ ابْنُ رَاشِدٍ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٤٨٩ / ١٠) فِي تَفْسِيرِهِ.

- وَقَوْلُ الْحَسَنِ حَسَنٌ أَيْضًا.

- وَقَوْلُ الضَّحَّاكِ تَأَلَّفَ الْإِسْنَادَ، لِأَنَّهُ مِنْ طَرِيقِ الْجَوْبِيِّ كَمَا فِي السَّابِقِ (٤٨٩ / ١٠).

الحسن. الرابع: أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت؛ قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشم في الفم. الخامس: هو الذي قد ضمير بركوب بعضه بعضاً؛ قاله الضحاك ومقاتل. السادس: أنه المتلاصق ببعضه ببعض؛ قاله أبو صخر. السابع: أنه الطلع حين يتفرق ويخضر؛ قاله الضحاك أيضاً. الثامن: أنه البانع النضيج؛ قاله ابن عباس. التاسع: أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه ابن شجرة؛ قال:

كَأَنَّ حَمَوْلَةَ تُجَلِّي عَلَيْهِ هَضِيمٌ مَا يُحْسُّ لَهُ شُقُوقٌ

العاشر: أنه الرخو؛ قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرخص اللطيف أول ما يخرج وهو الطلع النَّضِيدُ؛ قاله الهروي. الثاني عشر: أنه البرني^(١)؛ قاله ابن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل أي هنيء مريء من انهضام الطعام. والطلع اسم مشتق من الطلوع وهو الظهور؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَاْرِهِينَ﴾ التَّحْتُ النَّجْرُ وَالْبَرْيُ؛ نَحْتُهُ يَنْحَتُهُ (بالكسر) نَحْتًا إِذَا بَرَاهُ وَالنُّحَاتُ الْبُرَايَةُ. وَالْمُنْحَتُ مَا يَنْحَتُ بِهِ. وَفِي «وَالصَّاقَاتِ» قَالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]. وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «فَارِهِينَ»^(٢) بغير ألف. الباقون: «فَارِهِينَ» بألف وهما بمعنى واحد في قول أبي عبيدة وغيره؛ مثل: «عِظَامًا نُخْرَةً» [النازعات: ١١] و«نَاخِرَةً». وحكاه قطرب. وحكى فَرَهُ يَفْرُهُ فهو فاره وفَرَهُ يَفْرُهُ فَرَهُ وفاره إذا كان نشيطاً. وهو نصب على الحال. وفرق بينهما قوم فقالوا: «فَارِهِينَ» حاذقين بنحتها؛ قاله أبو عبيدة؛ وروي عن ابن عباس وأبي صالح^(٣) وغيرهما. وقال عبد الله بن شداد: «فَارِهِينَ» متجبرين. وروي عن ابن عباس أيضاً أن معنى: «فَارِهِينَ» بغير ألف أشرين بطرين^(٤)؛ وقاله مجاهد^(٥). وروي عنه شرهين^(٦). الضحاك: كَيْسِينِ^(٧). قتادة: معجيين^(٨)؛ قاله الكلبي؛ وعنه: ناعمين. وعنه أيضاً أمينين؛ وهو قول الحسن^(٩). وقيل: مستخيرين؛ قاله الكلبي والسدي^(١٠). ومنه قول الشاعر:

إِلَى فَرِهِ يَمَاجِدُ كُلِّ أَمِيرٍ قَصَدْتُ لَهُ لِأَخْتَبِرَ الطَّبَاعَا

وقيل: متعجيين؛ قاله خُصَيْفٌ. وقال ابن زيد: أقوياء^(١١). وقيل: فرهين فرحين؛ قاله

- (١) البرني: ضرب (نوع) من التمر أحمر مُشْرَبٌ بِصُفْرَةٍ كَثِيرٍ اللَّحَاءِ عَذْبُ الْحَلَاوَةِ. اللسان «برن».
- (٢) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).
- (٣) ضعيف إلى ابن عباس صحيح إلى أبي صالح: الطبري (٩٩ / ١٩) في تفسيره.
- (٤) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري في السابق (٩٩ / ١٩) من طريق العوفيين، وهو حسن إلى عبد الله بن شداد.
- (٥)، (٦) صحيح إلى مجاهد: السابق (١٩ / ١٠٠).
- (٧) ضعيف إليه: الطبري (٩٩ / ٩) في تفسيره من طريق ابن حميد وهو مستهم، وابن أبي حاتم (١٠٠ / ٤١١) في تفسيره من طريق جوير.
- (٨) صحيح: ابن أبي حاتم (٤٩٢ / ١٠) في تفسيره.
- (٩) وهو قول قتادة كما في السابق (٤٩٢ / ١٠).
- (١٠) ذكره البغوي (٦ / ١٢٥) في تفسيره غير مسند.
- (١١) صحيح إليه: الطبري (١٩ / ١٠٠) في تفسيره.

الأخفش. والعرب تعاقب بين الهاء والحاء؛ تقول: مدهته ومدحته؛ فالفره الأشير الفرح ثم الفرح بمعنى المرح مذموم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المراد الذين عقروا الناقة. وقيل: التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قال السدي وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إن قومك سيعقرون ناقتك؛ فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل. فقال لهم صالح: إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه؛ فقالوا: لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه. فولد تسعة منهم من ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك. وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا. وغضب التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيسته وأهله. قالوا: نخرج إلى سفر فتسرى الناس سفرنا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنما لصادقون؛ فيصدقوننا ويعلمون أننا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معهم في القرية وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عباد الله أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة^(١). وقال ابن إسحاق: إنما اجتمع التسعة على سب صالح بعد عقربهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة «النمل»^(٢) إن شاء الله تعالى. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ هو من السحر^(٣) في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدي. أي أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا. وقيل: من المعللين بالطعام والشراب^(٤)؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي. وهو على هذا القول من السحر وهو الرئة أي بشر لك سحر أي رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس:

ونُسحرُ بالطعام وبالشراب

﴿فَأْتِ بَايَةَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك. ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ قال ابن

عباس: قالوا: إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لنا. فدعا الله وفعل الله ذلك ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا

(١) هذه موقوفات ومقاطع الله أعلم بصحتها متناً وفي أسانيدنا مقال ، وانظر: البداية والنهاية (١ / ١٥٧) لابن كثير - رحمه الله .

(٢) عند الآية (٤٨).

(٣) صحيح إلبها : الطبري (١٩ / ١٠١) في تفسيره.

(٤) ضعيف إلى ابن عباس : رواه عنه أبو صالح وهو كذاب ، والرواي عنه موسى بن عمرو ولا اعرفه، ولو كان الذي اعرفه فهو مستور ، وانظر: تفسير الطبري (١٩ / ١٠١).

شَرِبَ ﴿١﴾ أي حظ من الماء؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أوّل النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً (١). قال الفراء: الشرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر فيقال فيه شرب شرباً وشرباً وشرباً وأكثرها المضمومة؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشرب الحظ من الماء، ويكون الشرب جمع شارب كما قال [الأعشى]:

فقلت للشرب في درنا وقد نملوا

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشرب بالفتح في المصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي ﷺ قال: «إنها أيام أكل وشرب» (٢). ﴿وَلَا تَسْوَأْ بِسُوءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد. ﴿فِيَأْخُذْكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روي عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ﴾ أي على عقرها لما أيقنوا بالعذاب. وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب. وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها. وهو بعيد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إلى آخره تقدم. ويقال: إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف. وقال كعب: كان قوم صالح اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثني عشر ألفاً من سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات (٣).

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٠﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ وَتَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴿١٦٢﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا لَنْ نُرْتَنِهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٤﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٥﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعَلُونَ ﴿١٦٦﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٦٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءً مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في «الاعراف» و«هود» مستوفى

(١) وجدته عند ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠ / ٤٩٤) مسنداً إلى أبي الطفيل، و(١٠ / ٤٩٥) بسند فيه شهر بن حوشب وهو إلى الضمف أقرب.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) ومن أين لكعب - رحمه الله - هذا أو لغيره، والإسناد مما اختص الله تعالى به هذه الأمة، فلا إسناد محدود إلى صالح عليه السلام وقومه، ولو كان في العدد فائدة لذكره الله سبحانه.

والحمد لله .

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أديارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في «الأعراف» . ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاجر: قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ قلت: «وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم» قال: الفرج (١)؛ كما قال: ﴿فَأْتَوْهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] . ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي متجاوزون لحدود الله . ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا . ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي من بلدنا وقريتنا . ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾ يعني اللواط ﴿مِنَ الْفَالِقِينَ﴾ أي المبغضين والقلبي البغض؛ قلبته أقلبه قلبي وقلاء . قال [امرؤ القيس]:

فلستُ بمقلِّي الخلالِ ولا قَالِي

وقال آخر:

عليك السلام لا مللتُ قريبةً ومالكٌ عندي إن نأيت قلاءً
﴿رَبِّ نَجِيٍّ وَأَهْلِي مِمَّا يَمْلُونَ﴾ أي من عذاب عملهم . دعا الله لما آيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابتاه على ما تقدم في «هود» . ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت (٢) . وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقي في الهرم أي بقيت حتى هربت . قال النحاس: يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال [الحارث بن حلزة]:

لا تكسَعُ الشَّوْكَ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِحِ

وكما قال [العجاج]:

فما ونى محمدٌ مذ أن عَفَرَ له الإلهُ ما مضى وما غَبَرَ

أي ما بقي . والأغبار بقيات الألبان . ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم بالحسف والحصب؛ قال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية . ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ وقيل: إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم اتبعها الله بالحجارة . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابتاه .

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ

(١) ذكره الطبري (١٩ / ١٠٣) في تفسيره غير مسند ، وإبراهيم بن مهاجر هذا هو الكوفي ليس بالقوي كما في الضعفاء والمتروكين (١ / ١١) للنسائي - رحمه الله - وتكلم فيه أحمد ويحيى وابن حبان والدارقطني كما في تهذيب التهذيب (١ / ١٤٦) لابن حجر .

وذكره ابن أبي حاتم (١١ / ٤) في تفسيره موصولاً - من طريقه، وفيه شريك وهو سفيان الحنظلي .

(٢) صحيح إليه : ابن أبي حاتم (١١ / ٦) في تفسيره .

الْعٰلَمِيْنَ ﴿١٥٥﴾ ۞ اَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِيْنَ ﴿١٥٦﴾ ۞ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيْمِ ﴿١٥٧﴾ ۞ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ اَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ ﴿١٥٨﴾ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبَالَ الْاُولٰٓئِيْنَ ﴿١٥٩﴾ ۞ قَالُوْا اِنَّمَا اَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِيْنَ ﴿١٦٠﴾ ۞ وَمَا اَنْتَ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَاِنْ نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِيْنَ ﴿١٦١﴾ ۞ فَاَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَآءِ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٦٢﴾ ۞ قَالَ رَبِّيْٓ اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٦٣﴾ ۞ فَكَذَّبُوْهُ فَاَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَّوْمِ الْاٰظِلَّةِ ۗ اِنَّهٗ كَانَ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿١٦٤﴾ ۞ اِنْ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةٌۭ لِّمَنْ كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١٦٥﴾ ۞ وَاِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴿١٦٦﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الايك الشجر الملتف الكثير الواحدة ايكه. ومن قرا: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة. ومن قرا «لَيْكَةَ» فهو اسم القرية. ويقال: هما مثل بكة ومكة؛ قاله الجوهري. وقال النحاس: وقرا أبو جعفر ونافع: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ»^(١) وكذا قرا في «ص». وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة «الحجر» والتي في سورة «ق» فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحداً. وأما ما حكاه أبو عبيد من أن «ليكة» هي اسم القرية التي كانوا فيها وأن «الأَيْكَةَ» اسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه. وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكة غيضة من شجر ملتف^(٢). وروى سعيد عن قتادة قال: كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامّة شجرهم الدوم وهو شجر المقل^(٣). وروى ابن جبير^(٤) عن الضحاك قال: خرج أصحاب الأيكة يعني حين أصابهم الحر فانضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها، فلما تكاملوا تحتها أحرقوا^(٥). ولو لم يكن هذا إلا ما روي عن ابن عباس قال: و«الأَيْكَةُ» الشجر. ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً أن الأيكة الشجر الملتف، فأما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد «ليكة» فلا حجة له؛ والقول فيه: إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقت حركتها على اللام فسقطت واستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فنقول بِلَحْمٍ؛ فإن شئت كتبه في الخط على ما كتبه أولاً، وإن شئت كتبه بالحدف؛ ولم يجز إلا الخفض. قال سيبويه: واعلم أن ما لا

(١) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

(٢) ضعيف: وفيه جرير بن حازم، عن قتادة وحديث جرير عنه فيه ضعف كما قال الذهبي - رحمه الله، ورواه الطبري (١٩ / ١٠٧) في تفسيره.

(٣) صحيح الإسناد وفيه غرابة ونكارة كالسابق: ابن أبي حاتم (١١ / ٨) في تفسيره.

(٤) في المطبوعة (روى جبير) وهو خطأ، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١ / ٨)، وإعراب القرآن (٣ / ١٩٠) للنحاس.

(٥) ضعيف جداً بل واه: ابن أبي حاتم (١١ / ٨) في تفسيره.

ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف انصرف؛ ولا نعلم أحداً خالف سبويه في هذا. وقال الخليل: «الأيكة» غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أختاً لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ لأنه كان منهم. وقد مضى في «الأعراف» القول في نسبه. قال ابن زيد: أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة. وقد ذكرناه. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ. وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيل والوزن. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي اعطوا الحق. وقد مضى في «سبحان» وغيرها ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدم في «هود» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحَبْلَةَ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: الحبلية هي الخليقة^(١). وجبل فلان على كذا أي خلق؛ فالخلق جبلية وجبلية وجبلية وجبلية ذكره النحاس في «معاني القرآن». ﴿وَالْحَبْلَةَ﴾ عطف على الكاف والميم. قال الهروي: الحبلية والحبلية والجبلية والجبلية لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿جِبَلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]. قال النحاس في كتاب «أعراب القرآن» له: ويقال جبلية والجمع فيها جبال، وتحذف الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جبلية وجبل، ويقال: جبلية وجبال؛ وتحذف الهاء من هذا كله. وقرأ الحسن باختلاف عنه: «وَالْحَبْلَةَ الْأُولَى» بضم الجيم والباء؛ وروي عن شيبه والاعرج. الباقون بالكسر. قال [امرؤ القيس]:

والموتُ أعظمُ حادثٍ فيما يَمُرُّ على الحبلية

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم. ﴿وَأِنْ نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى. ﴿فَأَمْسَقْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي جانباً من السماء وقطعة منه، فننظر إليه؛ كما قال: ﴿وَأِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]. وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرية. وقرأ السلمي وحفص: «كسفا»^(٢) جمع كسفة أيضاً وهي القطعة والجانب تقديره كسرة وكسر. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء؛ يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف. ويقال: الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كسفا» جعله واحداً ومن قرأ «كسفا» جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة «سبحان». وقال الهروي: ومن قرأ: «كسفا» على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفت الشيء كسفاً إذا غطيته. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿تهديد؛ أي إنما علي التبليغ وليس العذاب الذي سألتكم إلي وهو يجازيكم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ﴾ قال ابن عباس:

(١) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ١٠٦) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ١٢) في تفسيره.

(٢) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٣٥).

أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا^(١). وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم، وألهبها حراً حتى ماتوا من الرمّد. وكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً. وقيل: بعث الله عليهم سموماً فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمتها الله عليهم ناراً فاحترقوا. وعن ابن عباس أيضاً وغيره: إن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هدة^(٢) وحرا شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهمها الله تعالى عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلبي، فصاروا رماداً^(٣)؛ فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِاثِمِينَ﴾ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٧، ٦٨] وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام، وسلط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب، ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حراً من الظاهر. فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وهي الظلّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجريري: سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد فاتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد، فاجتمعوا كلهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظلّة. وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلّة، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين^(٤). ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قيل: آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر^(٥).

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٧٠﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٧١﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عاد إلى ما تقدم بيانه في أول السورة من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ﴾ مخففاً قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: ﴿نَزَّلَ﴾^(٦) مشدداً ﴿بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ﴾ وهو مصدر نزل. والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] أي يتلوه عليك فيعيه قلبك.

(١) لم أجده بهذا اللفظ وبعضه من طريق إسحاق بن نسر وهو كذاب، ووجدته (٥/ ١٧٤) في الدر المنثور للسيوطي - رحمه الله تعالى.

(٢) الطبري (١٩/ ١٠٨) في تفسيره، وفيه: (ومدة) بدلا من (هدة).

(٣) حسن بمجموع طرقه وشواهدة: الطبري (١٩/ ١٠٧، ١٠٨) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ١٤) في تفسيره.

(٤) سبق تضعيف هذا الأثر: وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٠٧) من طريق جرير بن حازم، عن قتادة به.

(٥) ولا يصح العدد؛ لعدم وجود الإسناد إليه.

(٦) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

وقيل: ليثبت قلبك. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي لثلاثا يقولوا لسنا نفهم ما تقول. ﴿وإنه لفي زبور الأولين﴾ أي وإن ذكر نزوله لفي كتب الأولين يعني الأنبياء. وقيل: أي إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأولين. كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والزبور الكتب الواحد زبور كرسول ورسول؛ وقد تقدم.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٥٥﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٥٦﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٥٧﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٥٩﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦٠﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن أسلم^(١). وقال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته^(٢). فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علم. وقرأ ابن عامر «أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ»^(٣). الباقون «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ» بالنصب على الخبر واسم يكن ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ والتقدير أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة. وعلى القراءة الأولى اسم كان ﴿آيَةٌ﴾ والخبر ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقرأ عاصم الجحدري «أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ». ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي على رجل ليس بعربي اللسان ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نطقه. نظيره ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤٤] الآية. وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبرا. يقال: رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجل عجمي وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي. وقرأ الحسن «عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ» مشددة بياءين جعله نسبة. ومن قرأ ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالالف والتاء؛ لا يقال: أحمران ولا حمراوات. وقيل: إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جني. وهو مذهب سيويه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لا يؤمنون به

(١) صحيح إليه: الطبري (١٩ / ١١١) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١ / ٢٤) في تفسيره.

(٢) الدر المنثور (٥ / ١٧٧) للسيوطي، وهو من رواية المصنف بلا سند (١٢ / ٨٠) في المحرر الوجيز لابن عطية.

(٣) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

وقيل: سلطنا التكذيب في قلوبهم؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان؛ قاله يحيى بن سلام. وقال
عكرمة: القسوة. والمعنى متقارب وقد مضى في «الحجر». وأجاز الفراء الجزم في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن
فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما
جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم؛ لأن معناه إن لم أربطه
ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت. وأنشد لبعض بني عَقِيل:

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا
مُسَاكِنَةٌ لَا يَبْرِفُ الشَّرَّ قَارِفُ

بالرفع لما حذف كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطَالَمَا حَلَا تَمَاهَا لَا تَرْدُ
فَخَلِيَّاهَا وَالسَّجَالَ تَبْتَرِدُ

قال النحاس: وهذا كله في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خطأ عند البصريين، ولا يجوز الجزم بلا جازم، ولا
يكون شيء يعمل عملاً فإذا حذف عمل عملاً أقوى من عمله وهو موجود؛ فهذا احتجاج بين.
﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٢١١) ﴿فِيَاتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي العذاب. وقرأ الحسن «فَتَاتِيهِمْ» بالناء؛ والمعنى: فتأتيهم
الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها. وقال رجل للحسن
وقد قرأ «فَتَاتِيهِمْ»: يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهره وقال: إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أي
فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي مؤخرون وممهلون. يطلبون الرجعة
هنالك فلا يجابون إليها. قال القشيري: وقوله: ﴿فِيَاتِيهِمْ﴾ ليس عطفاً على قوله: ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ بل
هو جواب قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلما كان جواباً للنفي انتصب؛ وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾.

﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢١٢) ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢١٣) ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٢١٤) ﴿مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ (٢١٥) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (٢١٦) ﴿ذِكْرِي﴾ (٢١٧) ﴿وَمَا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾ (٢١٨)

قوله تعالى: ﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ يا محمد إلى متى تعدنا
بالعذاب ولا تأتي به فتزلت: ﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١). ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا
والمراد أهل مكة في قول الضحاک وغيره. ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى استفهام معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ﴿أَغْنَى﴾ و﴿مَا﴾
الثانية في موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانية نفيًا لا موضع لها. وقيل: ﴿مَا﴾ الأولى حرف نفي.
و﴿مَا﴾ الثانية في موضع رفع بـ﴿أَغْنَى﴾ والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمان
الذي كانوا يمتعون به. وعن الزهري: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلسحيته ثم قرأ
﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢١٥) ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٢١٦) ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ ثم يبكي
ويقول:

(١) معضل: ومقاتل ضعيف. ابن أبي حاتم (١/ ٢٩) في تفسيره مرسلًا، وانظر: لباب النقول (ص ٣٠٦)
للسيوطي.

نهارك يا مغرور سهوً وغفلةً وليلك نومٌ والردي لك لازمٌ
فلا أنت في الأيقاظ يقظانٌ حازمٌ ولا أنت في النوم ناسجٌ فسالمٌ
تسرُّ بما يقنى وتفرحُ بالمسنى كما سرُّ باللذات في النوم حالمٌ
وتسعى إلى ما سوف تكره غيبهً كذلك في الدنيا تعيشُ بهائمٌ

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ صلة؛ المعنى: وَمَا أَهْلَكْنَا قَرْيَةً. ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ أي رسل. ﴿ ذِكْرِي ﴾ قال الكسائي: ﴿ ذِكْرِي ﴾ في موضع نصب على الحال. النحاس؛ وهذا لا يحصل، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر؛ قال الفراء: أي يذكرون ذكري؛ وهذا قول صحيح؛ لأن معنى ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ إلا لها مذكرون. و﴿ ذِكْرِي ﴾ لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفاً مقصورة. ويجوز «ذِكْرِي» بالتونين، ويجوز أن يكون «ذِكْرِي» في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إذارنا ذكري. وقال الفراء: أي ذلك ذكري، وتلك ذكري. وقال ابن الأنباري قال بعض المفسرين: ليس في «الشعراء» وقف تام إلا قوله: ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يتدنى «ذِكْرِي» على معنى هي ذكري أي يذكرهم ذكري، والوقف على «ذِكْرِي» أجود. ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعدنا إليهم.

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ يعني القرآن بل ينزل به الروح الأمين. ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴾ (٧١١) ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ أي برمي الشهب كما مضى في سورة «الحجر» بيانه. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمِيعُ: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ» قال المهدي: وهو غير جائز في العربية ومخالف للخط. وقال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا غلط عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلم فغلط، وفي الحديث: «احذروا زلّة العالم»^(١) وقد قرأ هو مع الناس «وإذا خلوا إلى شياطينهم» [البقرة: ١٤]. ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة. وقال الثعلبي قال الفراء: غلط الشيخ يعني الحسن فقليل ذلك للنضر بن شُمَيْل فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه. مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بذلك إلا وقد سمعا في ذلك شيئاً؛ وقال المورج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت: ما أشبه هذا بقراءة الحسن.

(١) ضعيف جداً: ضعفه الألباني (١٩٤) في ضعيف الجامع.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى قل لمن كفر هذا. وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودل على هذا قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي لا يتكلمون على نسبهم وقرباتهم فيدعون ما يجب عليهم.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ فَإِنَّ عَصَاكَ فُقِّلَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٣٥﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣٦﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي
السُّجُودِ ﴿٣٧﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار لتتحسّم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقتها إياهم على الشرك. وعشيرته الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ»^(١). وظاهر هذا أنه كان قرآناً يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر. ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبّ النبي ﷺ لا المشركون؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم ﷺ؛ فلم يثبت ذلك نقلاً ولا معنى. وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإنني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سألها بيلالها»^(٢).

الثانية: في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته؛ لقوله: «إِنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَلَهَا بِبِلَالِهَا» وقوله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [المتنحة: ٨] الآية، على ما يأتي بيانه هناك. قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم في سورة «الحجر» و«سبحان» يقال: خفض جناحه إذا لان. ﴿فَإِنَّ عَصَاكَ﴾ أي خالفوا أمرك. ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بريء من

(١) متفق عليه: البخاري (٤٩٧١) في التفسير، ومسلم (٢٠٨) في الإيمان.

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٧٥٣) في الوصايا، ومسلم (٢٠٦) في الإيمان.

معصيتكم إياي؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل، لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذي لا يغالب، الرحيم الذي لا يخذل أوليائه. وقرأ العامة: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو وكذلك هو في مصاحفهم.

وقرأ نافع وابن عامر «فَتَوَكَّلْ» بالفاء^(١)، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره^(٢). وقال مجاهد: يعني حين تقوم حيثما كنت^(٣). ﴿وَتَقَبَّلْ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المصلين^(٤). وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً^(٥). وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً^(٦)؛ وقاله ابن عباس أيضاً. وقيل: المعنى: إنك ترى بقلبك في صلاتك من خلقتك كما ترى بعينك من قدامك^(٧). وروي عن مجاهد؛ ذكره الماوردي والثعلبي. وكان عليه السلام يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، وذلك ثابت في الصحيح^(٨)، وفي تأويل الآية بعيد ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تقدم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأنها أكثر ما تكون في الهواء، وأنها تمر في الريح. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تقدم في «الحجر». فـ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ صفة الشياطين ﴿وَأَكْثُرُهُمْ﴾ يرجع إلى الكهنة. وقيل: إلى الشياطين.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَتَّخِذُوا الْقُرْآنَ أَلْحَادًا بِحُدُودِهِمْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

(١) قراءة سبعة متواترة: تقرب النشر (ص ١٥٢).

(٢) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٩ / ١٢١) في تفسيره من طريق العوفيين، ورواه به عن عطاء الخراساني وفيه انقطاع، وحسن من طريق عكرمة كما في تفسير ابن أبي حاتم (١١ / ٣٩).

(٣) ضعيف: النكت والعيون (٣ / ١٨٥) للماوردي، وابن أبي حاتم (١١ / ٤٠) منقطعاً من طريق ابن جريج عنه.

(٤) صحيح إليه: الطبري (١٩ / ١٢٢) في تفسيره.

(٥) فيه عطاء الخراساني، عن ابن عباس كما في تفسير ابن أبي حاتم (١١ / ٤٠).

(٦) حسن: الطبري (١٩ / ١٢١) في تفسيره.

(٧) حسن إلى مجاهد: الطبري (١٩ / ١٢٢) في تفسيره، من طريق ابن أبي نجيح.

(٨) صحيح: وقد سبق.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء؛ قال ابن عباس: هم الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ ضلال الجن والإنس^(١). وقيل: ﴿الْفَاوُونَ﴾ الزائلون عن الحق، ودلّ بهذا أن الشعراء أيضاً غاؤون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك. وقد قدمنا في سورة «النور» أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم. روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال: «هيه»^(٢) فأنشدته بيتاً. فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً. فقال: «هيه» حتى أنشدته مائة بيت^(٣). هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته. وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه؛ وهو وهم؛ لأن الشريد هو الذي أرفده رسول الله ﷺ. واسم أبي الشريد سويد. وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه كان حكيماً؛ ألا ترى قوله عليه السلام: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»^(٤) فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمد لله العليّ المنان صار الثريد في رؤوس العيدان

أو ذكر رسول الله ﷺ أو مدحه كقول العباس:

من قبلها طبت في الظلال وفي مسد
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت
بل نطفة تركب السفين وقد ألد
تنقل من صالب إلى رحيم
تودع حيث يخصف الورق
ولا مضغعة ولا علق
جَمَ نَسراً وأهلَه الغرق
إذا مضى عالمٌ بدأ طبق

فقال له النبي ﷺ: «لا يفضض الله فاك»^(٥). أو الذب عنه كقول حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه^(٦) وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه؛ كما روى زيد بن

أسلم؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفش صوقاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بكاً بالأسحار يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل يجمعني وحببي الدار

يعني النبي ﷺ؛ فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم؛ ولقد

أحسن محمد بن سابق حيث قال:

(١) منقطع: الطبري (١٩/ ١٢٥) في تفسيره، عن علي بن أبي طلحة به.

(٢) هيه: زدني، أو هات ما عندك (اسم فعل) كما في النهاية (٥/ ٢٩٠).

(٣) صحيح: مسلم (٢٢٥٥) في الشعر.

(٤) متفق عليه: البخاري (٣٨٤١) في المناقب، ومسلم (٢٢٥٦) في الشعر.

(٥) ضعيف: الهيثمي (٨/ ٢١٧، ٢١٨) في المجمع، وقال: «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم».

(٦) صحيح: مسلم (٢٤٩٠) في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

إِنِّي رَضِيتُ عَلَيَا لِنَهْدَى عِلْمًا
وقد رَضِيتُ أبا حَفْصٍ وَشِيعَتَهُ
كُلَّ الصَّحَابَةِ عِنْدِي قُدُوةٌ عِلْمٌ
إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَحِبُّهُمْ
وقال آخر فأحسن:

كَمَا رَضِيتُ عَتِيقًا صَاحِبَ الْغَارِ
وما رَضِيتُ بِقَتْلِ الشَّيْخِ فِي الدَّارِ
فَهَلْ عَلَيَّ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنْ عَارٍ
إِلَّا مِنْ أَجْلِكَ فَاعْتَقِنِي مِنَ النَّارِ

حُبُّ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ مُفْتَرَضٌ
مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ
وَلَا أبا حَفْصٍ الْفَارُوقَ صَاحِبَهُ
أَمَّا عَلِيٌّ فَمَشْهُورٌ فَضَائِلُهُ

وَحُبُّ أَصْحَابِهِ نَوْرٌ بِيْرَهَانٍ
لَا يَرْمِينُ أَبَا بَكْرٍ بِيْهْتَانٍ
وَلَا الْخَلِيفَةَ عِثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ
وَالْبَيْتَ لَا يَسْتَوِي إِلَّا بِأَرْكَانٍ

قال ابن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد؛
بذلك يضرب الملك الموكَّل بالرويا المثل، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

مُنْتَمِمٌْ إِتْرَهَا لَمْ يُفَدَمْ مَكْبُولُ
إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

بِأَنْتَ سَعَادٌ فِقْلِبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ
وَمَا سَعَادٌ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح^(١). وأنشد أبو بكر رضي الله عنه:

وودَّعْنَا مِنَ اللَّهِ الْكَلَامُ
تَوَارِثَهُ الْقِسْرَاطِيسُ الْكِرَامُ
عَلَيْكَ بِهَ التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ

فَقَدْنَا الْوَحْيَ إِذْ وَلَّيْتَ عَنَا
سَوَى مَا قَدْ تَرَكْتَ لَنَا رَهِينًا
فَقَدْ أَوْرَثْنَا مِيرَاثَ صَدَقٍ

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاعتداء موضع أرفع من هذا.
قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدق كلمة أو أشعر كلمة قالتها العرب قول لبيد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»

أخرجه مسلم وزاد «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»^(٢) وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر. فقال: ويلك يا لُكْعُ وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنة حسن وقبيحة قبيح قال: وقد كانوا يتذكرون

(١) الراح: الخمر. الصحاح (١/ ٣٩٨).

(٢) صحيح: وقد سبق قريباً.

الشعر (١). قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يُحِبُّ الخَمْرَ من مال النَّدَامَى وَيَكْرَهُ أن يفارِقَهُ العَلُوسُ (٢)
 وكأن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً
 مجيداً مقدماً فيه (٣). وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب، وكانت له زوجة حسنة تسمى عثمة
 فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها، وله فيها أشعار كثيرة؛ منها قوله:

تَعْلَعَلُ حُبُّ عَثْمَةَ في فُوادي فبإديه مع الخافي يسيـرُ
 تَعْلَعَلُ حيث لم يبلغ شَرابُ ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ
 أكاد إذا ذكرت العهد منها أطيـر لو أن إنساناً يطيرُ (٤)

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك فقال: إن المصدر إذا نثت برأ (٥).

الثانية: وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى
 يفضلوا أجبن الناس على عترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقى، وأن يفرطوا
 في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان
 بن عبد الملك سمع قوله:

فبِئْسَ بجانبي مُصَرَّعاتٍ وبتُ أفضُّ أغلاقَ الخبيامِ
 فقال: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا
 لَا يَفْعَلُونَ﴾ وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:
 من مُبْلِغِ الحِساءِ أن حليلها بيمسَّان يُسقى في زجاجٍ وحتَّم
 بثبتُ عنتني دهاقين قـرية ورقاصة تجذو على كل منسِم
 فبإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالاصغر المتثلَّم
 لعلَّ أمير المؤمنين يسوؤه تنادمتا بالجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي والله إنني ليسوؤني ذلك. فقال: يا أمير
 المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ
 الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أما عذرك فقد
 درأ عنك الحد؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت (٦). وذكر الزبير بن بكار قال: حدثني
 مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة
 والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة: إنني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث، فإذا أتاك
 كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إلي. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر؛ فقال: هيه!

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظرٌ ناظرٍ ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوَى
 وكم مالى عينيهِ من شيءٍ غيرِهِ إذا راح نحو الجمرَةِ البيضِ كالدمَى

(١ - ٥) التمهيد (٢٢ / ١٩٥) لابن عبد البر - رحمه الله.

(٦) هذه رواية الدارقطني (٤ / ١٥٦) في سننه.

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون ثم أمر بنفسه. فقال: يا أمير المؤمنين أو خير من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهد الله إنني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبدأ. وأجدد توبة؛ فقال: أو تفعل؟ قال: نعم؛ فعاهد الله على توبته وخلاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال: هيه!

الله بيني وبين قِيمِها يَفِرُّ مِنِّي بِها وَأَتْبِعُ

بل الله بين قيمها وبينك ثم أمر بنفسه؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال: والله لا أردّه ما كان لي سلطان، فإنه فاسق مجاهر.

فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد ولا غيره، كمشور الكلام القبيح ونحوه. وروى إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حسن الشعر كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام»^(١) رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام»^(٢).

الثالثة: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلي جوف أحدكم قيحاً حتى يرى خيراً من أن يمتلي شعراً»^(٣) وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذا عرض شاعر يُشَدُّ فقال رسول الله ﷺ: «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلي جوف رجل قيحاً خيراً له من أن يمتلي شعراً»^(٤) قال علماؤنا: وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله؛ ففعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب، فيفرط في المدح إذا أعطي، وفي الهجو والذم إذا منع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم. ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام. وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعيين عليه أن يداريه بما استطاع، ويدافعه بما أمكن، ولا يحل له أن يعطى شيئاً ابتداءً، لأن ذلك عون على المعصية؛ فإن لم يجد من ذلك بدأ أعطاه بنية وقاية العرض؛ فما وقى به المرء عرضه كُتِبَ له به صدقة.

قلت: قوله: «لأن يمتلي جوف أحدكم قيحاً حتى يرى خيراً من أن يمتلي شعراً» القبح المدّة يخالطها دم. يقال منه: قاح الجرح يقسح ويقسح وقسح. و«يريه» قال الأصمعي: هو من الورّي على مثال الرمي وهو أن يدوى جوفه، يقال منه: رجل موريّ مشدّد غير مهموز. وفي الصحاح: ورى القيق جوفه يريره وريا إذا

(١) صحيح: الدارقطني (٤/ ١٥٦)، والبخاري (٨٦٥١) في الأدب المفرد، وانظر: صحيح الجامع (٣٧٣٣)

للألباني - رحمه الله تعالى .

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) صحيح: مسلم (٢٢٥٩) في الشعر .

(٤) انظر السابق .

أكله. وأنشد الزبيدي:

قالت له ورَباً إذا تَنَحَّنَا

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله: إنه الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلاً صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللفظ والهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بَوَّبَ على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر». وقد قيل في تأويله: إن المراد بذلك الشعر الذي هُجِيَ به النبي ﷺ أو غيره. وهذا ليس بشيء، لأن القليل من هجو النبي ﷺ وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبي ﷺ من المسلمين محرّم قليله وكثيره، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى.

الرابعة: قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع. قال الأوّل منهم: **وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ**

وقال النبي ﷺ في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين: «إنه لأسرع فيهم من رشق النبل» (١) أخرجه مسلم. وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحَةَ يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بَنِي الكَفَّارِ عَن سَبِيلِهِ اليَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يَزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَن خَلِيلِهِ

فقال عمر: يا ابن رَوَاحَةَ في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل» (٢).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لم يختلف القراء في رفع ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ فيما علمت. ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ وبه قرأ عيسى ابن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حب النصب؛ قرأ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] و﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] و﴿سُورَةَ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١]. وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي: ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ مخففاً (٣). الباقرن ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾. وقال الضحاك: تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله ﷺ مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فنزلت (٤)؛ وقاله ابن عباس (٥). وعنه هم الرواة للشعر.

(١) صحيح: مسلم (٢٤٩٠) في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

(٢) صحيح: الترمذي (٢٨٤٧) في الأدب، والنسائي (٣٨٥٦) في الكبرى، وصححه الألباني - رحمه الله.

(٣) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٥٢).

(٤) مرسل وفيه ضعف: الطبري (١٩/ ١٢٥) في تفسيره.

(٥) ضعيف: الطبري (١٩/ ١٢٥) في تفسيره من طريق العوفيين، وعنه السيوطي (ص ٣٠٧) في لباب النقول.

وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضلّال الجن والإنس^(١)؛ وقد ذكرناه. وروى غُصَيْفٌ عن النبي ﷺ: «من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه»^(٢) وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما افتتح مكة رنّ إبليس رنه وجمع إليه ذريته؛ فقال ائتسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفسوا فيهما يعني مكة والمدينة الشعر^(٣).

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سننَ الحق؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله ثبت، ولم يكن هائماً يذهب على وجهه لا ليالي ما قال. نزلت في عبد الله بن الزُبَيْرِيٍّ ومُسَافِعِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ وَأَمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحِيِّ حيث قال:

ألا أبلغا عني النبي محمداً
ولكن إذا ذُكِرْتُ بَدْرًا وأهله
بأنك حقّ والمليك حميدٌ
تأوه مني أعظم وجلودٌ .

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم ﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق، وبما حذّه الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل. وقال أبو الحسن البرّاد. لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ جاء حسان وكعب ابن مالك وابن رَوَاحَةَ ليكون إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: «اقرأوا ما بعدها ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية أنتم ﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أنتم» أي بالرد على المشركين. قال النبي ﷺ: «انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً، ولا تذكروا الآباء والأمهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوت محمداً فأجبتُ عنه
وإن أبي ووالدتي وعرضي
وعند الله في ذاك الجزاءُ
لعرض محمد منكم وقاءُ
أنتمته ولست له بكفء
ولساني صارمٌ لا عيب فيه
وبحري لا تُكدره الدلاءُ

وقال كعب: يا رسول الله إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل». وقال كعب:

جاءت سَخِينَةُ كِي تُغَالِبُ رَبَّهَا
وَكَيْغُلِبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَابِ

فقال النبي ﷺ: «لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا»^(٤). وروى الضحاك عن ابن عباس

(١) ضعيف: وقد سبق .

(٢) موضوع: الهيمى (٨/ ١٢٣) في المجمع، وعزاه للطبراني، وقال: «فيه إسحاق بن فروة وهو: متروك» .

(٣) رجاله موثقون: كذا قال الهيمى (٣/ ١٣) في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير .

(٤) ذكره الهيمى (٨/ ١٢٣) في المجمع وعزاه لأحمد وأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه .

أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال المهدي: وفي الصحيح عن ابن عباس أنه استثناء. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديد لمن انتصر بظلم. قال شريح: سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. وقراً ابن عباس: «أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» بالفاء والتاء ومعناها واحد. ذكره الثعلبي، ومعنى ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أي مصير يصيرون، وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع: أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً؛ والله أعلم؛ ذكره الماوردي. و﴿أَيُّ﴾ منصوب ب﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً ب﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ لأن «أياً» وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك: أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر، فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض.